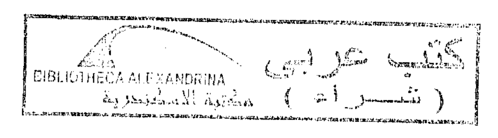

ثروت أباظة
الضباب
مكتبة مصر

ثروت أباظة

الضباب



الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى ـ الفجالة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠

(١)

بكرت الحاجة بمبة زوجة الحاج والى عبد الهادى فلبست معطفها ووضعت على رأسها خمارا مما تضعه زوجات الأعيان في الريف ، وأسقطته على وجهها وخرجت إلى الطريق العام تسير في تؤدة وفى صحة مكتملة ، فما كانت الست بمبة قد تعدت الأربعين من عمرها ، وما كان بطء المشية إلا التزاماً بما تمليه عليها مكانتها فى القرية .

ولم يطل المسير بالست بمبة فقد توقفت عند باب أحال وجهه لقاء الزمن ، فهو كالح باهت لا استواء فى ألواحه ولا نعومة ، فكأنما ألقت عليه الأيام غضوناً كهذه التى تلقيها على وجوه البشر ، وطرقت بمبة الباب فانشق عن امرأة فى خريف العمر ، فى وجهها قناعة وطيبة وفيه أيضاً بعض غضون من العمر تزكيها خصلات من الشعر الأبيض جمحت فأبت أن تبقى حبيسة المنديل القديم الذى تعصب به رأسها ، وقد دهشت سيدة أم عسل أن تقصد إليها الست بمبة فى زيارة صباحية بغير داع إليها .. ولكن دهشتها لم تمنعها أن ترحب بالزائرة أعمق ترحيب وأصدقه .

لم تكن الحاجة بمبة لتزور بيت سيدة أم عسل فى الصباح ولا حتى فى المساء ، إذ لم يكن هناك سبب ملح للزيارة كأداء واجب فى عزاء أو تهنئة لزواج ، أما أن تسقط عليها عما يفعل الأصدقاء رفعوا بينهم الكلفة والمواعيد ، فهذا ما لا يتفق ومكانة الست بمبة أو الحاجة بمبة كما يدعوها الجميع ، فهى زوجة الحاج والى عبد الهادى من أعيان قرية الحمدية يملك فى زمام القرية ثلاثين فدانا . وهو إلى هذا رجل ذو رأى صائب يلجأ إليه القوم فى الملمات ، وهو كذلك على صلات وطيدة بذوى الشأن فى المديرية ـــ مديريرة الشرقية ـــ وليس أدل على وجاهته ومكانته المرموقة من أن زين العابدين بك الدرملى وجيه القرية بل المنطقة ، لا يزور فى القرية إلا قلة

قليلة من بينها إن لم يكن فى مقدمتها الحاج والى عبد الهادى . فزيارة الحاجة بمبة إذن لسيدة أم عسل زوج محمدين أبو على زيارة من شأنها أن تثير الدهشة والعجب والحيرة .

والزيارة في الصباح تزيد من هذه الدهشة والعجب والحيرة . فما تعودت النساء في القرية أن يتزاورن فى الصباح فكيف بهذه الزيارة التى تقوم بها الحاجة بمبة إلى هذا البيت المتواضع ، فما يزيد محمدين أبو على على رجل طيب يملك فدانين اثنين وخمسة أولاد بين بنات ونساء وبنين ، وهو بعد يزرع الفدانين بيديه . فالصلة إذن بين الحاجة بمبة وسيدة ، صلة تقوم على العطف أكثر مما تقوم على الصداقة ، وزيارة الحاجة بمبة لبيت محمدين فى أى وقت إنما تعتبر تنازلا يتلقاه أهل هذا البيت الطيب بكل امتنان وزهو ، وزيارة سيدة أم عسل لبيت الحاجة أمر تستعد له سيدة استعداداً كبيرا ، ثم هى لا تقوم بهذه الزيارة وحدها إنما تحرص فى غالب الأمر على أن تصحب معها ثلة من نساء القرية . وهذه الزيارات تتكرر مرات كثيرة فى الأسبوع ، فى حين لا تتم زيارة الحاجة بمبة لسيدة إلا مرة فى العام على الأكثر ولابد أن يكون هناك داع لتتم الزيارة . إذن فقدوم الست بمبة لابد أن يكون مصحوباً بالخطير الجليل من الأمر .

قالت سيدة :

ـ أهلا ستى الحاجة .. نورت ، أهلاً وسهلاً .. تفضلى .

ودلفت بمبة إلى البيت ودخلت إلى القاعة التى تعرفها وقالت :

ـ كيف أنت يا سيدة ؟

وأجابت سيدة :

ـ اللّه يبقيك ويطيل عمرك .. دقيقة واحدة أحضر الحصير .

ـ لا . سأجلس على المصطبة .

ـ أهذا يصح يا ستى الحاجة ؟ .. والله أبدا .. حالا ..

وراحت ترفع صوتها وهى تحضر الحصير من خارج الغرفة لتشعر الست بمبة أنها معها لم تتركها ، وما لبثت أن عادت سيدة وفرشت الحصير على المصطبة المبنية من اللبن وقالت :

ـ قهوة ؟ . عندنا بن يمنى يستاهل حنكك .

ـ اقعدى يا سيدة .

ـ القهوة قبل أن أقعد .

ـ اقعدى يا سيدة ، أنا أريدك فى شىء مهم .

ـ يا ستى الحاجة من حقك علينا أن تأمرى .. لا ينسى المعروف إلا ابن الحرام .. لماذا لم ترسلى إلى وأنا أجىء على عينى ؟

ـ لا .. أردت أن أجىء أنا إليك .

ـ أهلا وسهلاً .. شرفت بيتنا .. والنبى اتركينى دقيقة واحدة أحضر القهوة .

ـ اسمعى يا سيدة .. أنت تعرفين منذ متى وأنا متزوجة من الحاج .

ـ نعم منذ أكثر من عشرين سنة .

ـ أظن يا سيدة أن ليس فى العالم واحدة فعلت ما أفعله أنا الآن .

ـ خيرا يا ستى الحاجة .

وجذبت الحاجة بمبة نفسا عنيفا من أعماق أحزانها ثم أطرقت لحظات وصمتت ، واحترمت سيدة حزن الحاجة وصمتها فصمتت هى حتى عادت بمبة إلى الحديث :

ـ أنت تعرفين كم يشتاق الحاج إلى أولاد !

وأطرقت سيدة وتنهدت ومصت شفتيها وقالت :

ـ نعم يا ستى الحاجة ، ربنا يكون فى عونك .

ـ الحاج الآن فى الأربعين من عمره وهو ..

وقاطعتها سيدة قائلة :

ـ هل جربت التفاحة ؟ .. سهلة .. أقول لك ..

وقاطعتها الحاجة بمبة :

ـ أكثر من عشرين سنة أجرب يا سيدة .. اسمعى الكلام لآخره ولا تقاطعينى .

ـ أمرك يا ستى الحاجة .

ـ الحاج لم يعد يستطيع صبرا وهو محق ، فإن سنه لا تسمح له بأن ينتظر .. بلغ من شغفه بإنجاب الأطفال أنه كان يريدنى أن أذهب إلى مصر اليوم وأعرض نفسى على طبيب .

ودقت سيدة صدرها وكأنما طعن شرف الحاجة بمبة ، وقالت سيدة :

ـ ماذا يا ستى الحاجة .. طبيب رجل .. يكشف عليك أنت ؟ أنت يا طاهرة يا نظيفة .. قطع الخلف وأيامه .. أمن أجل العيال يكشف، عليك رجل ؟ رجل يا ستى الحاجة .. رجل !

فقالت بمبة فى أسى :

ـ لم أقبل يا سيدة .. لم أقبل . ولكننى أعرف زوجى فهو رجل غيور .

ـ عارفة يا ستى الحاجة .

ـ فقبوله أن يكشف علىّ رجل دليل على مقدار لهفته على الخلف .

ـ لك حق يا ستى الحاجة .

ـ رفضت .. وقلت فى نفسى ....

وصمتت الحاجة وأطلقت تنهيدة أخرى من صدرها فما خففت التنهيدة شيئاً ، وكانت سيدة تتحرق شوقاً لتعرف ما بنفس الحاجة .. ولم تكمل

الحاجة حديثها بل إنها لوت طريقه فى عنف يدعو إلى الدهشة فهى تسأل سيدة :

ـ قولى يا سيدة .. أيجرى أحد على ابنتك صالحة ؟

ـ نعم يا ستى الحاجة . ولكن ما المناسبة ؟

ـ هل أعطى محمدين كلمة لأحد ؟

ـ لا .

ـ أنا أخطبها للحاج والى .

ـ ماذا يا ستى الحاجة .. ماذا قلت ؟

ـ ما سمعت .. أنا أخطب ابنتك للحاج والى زوجى .

كان الموقف أكبر من الدهشة من سيدة وأكبر من الألم من بمبة ، فلفّ المرأتين صمت امتزج فيه العجب الآخذ بالألم المرير والتقت فيه دموع بدموع، دموع من أعماق الإنسانية الخالصة ، وفهمت كل من المرأتين سر دموع الأخرى .. وتمالكت الحاجة بمبة أمر نفسها سريعاً وقالت :

ـ قلت له لن أذهب ، ثم أدركت أنه سيتزوج ، فقلت أزوجه أنا من امرأة أعرفها خيراً من أن يحضر لى ضرة لا أعرفها وتحاول أن تجعل من نفسها سيدة علىّ ، فهى ـ فى الغالب ـ ستكون أم العيال . أنا أعرف صالحة .. إنها بنت حلال .

وقاطعتها سيدة :

ـ خدامتك يا ستى الحاجة .

ـ وهى أيضاً قد تزوجت من قبل وخلفت وسنها معقولة .. هيه .. ماذا قلت ؟

ـ أمرك يا ستى الحاجة .

ـ ستكون كابنتى تماما يا سيدة .

ـ عارفة يا ستى الحاجة .. عارفة .. لا حول ولا قوة إلا باللّه .. لا حول ولا قوة إلا باللّه .

(٢)

كان الحاج والى جالسا فى دوار زين العابدين بك ينتظر نزوله من الطابق الأعلى . ولم يكن أحد يشارك الحاج والى فى جلسته فى الدوار فهو وحيد . ولم تكن السعادة بادية على محياه ، فهم متجهم شارد الذهن مفكر تفكيرا لا تلوح عليه بوادر هناءة أو رضا . فوجهه الأسمر مقطب ، وشاربه الذى تعود أن يعتنى به كل يوم عند الحلاق مهمل أشعث غاضب كصاحبه ، حتى العمامة التى لا يلبسها الحاج والى إلا وهى ملفوفة مسبوكة مهندمة ألقى عليها الحاج والى ظلا من تجهمه ، فهى منداحة على رأسه تكاد تتهدل أطرافها على وجهه . وفى عينيه السوداوين ظل من أسف وأسى ، وفى جبهته العريضة غضون من الألم لا من الزمن ، وفى فمه كلمة حبيسة لا يدريها ولا يعرف ما هى ولكنه يعرف أسبابها ودوافعها .. كيف يقول ما بنفسه ، كيف يعبر عنه ؟ لم يكن يدرى .. وأنفه الكبير بعض الشىء يجتذب أنفاسا عميقة ولكنها لا تريحه ، فما يلبث من حين لآخر أن يفتح فمه الصغير فيلتقط من الهواء شهيقاً عميقاً يزفره فى نفخة حانقة ضيقة ملول ، فما يجدى الشهيق ولا الزفير ولا الأنفاس اللاهثة التى يجتذبها له أنفه .

ويأتى متولى الخادم إلى الحاج والى فما يرفع عينيه إلى متولى . ولم يكن متولى ليرضى هذا منه فقد تعود من الحاج والى مداعبة أو كلمة تحية إن كان جالسا إلى البك ، أما أن يلاقيه بهذا الصمت بل بهذا الإهمال فأمر لا يمكنه السكوت عليه ، فإن الحاج والى لا يفعل هذا إلا إن كان فى حال من الضيق شديدة . وقبل أن ينطق متولى يكون الحاج والى قد شهق من الهواء شهقة

طويلة زفرها وقد ضم شفتيه بعض الشيء فخرج الهواء كصفير فاشل حانق ، وقال متولى :

ـ أعوذ بالله ! لماذا هذا يا حاج والى ؟ .. هون عليك يا شيخ . تبيت ناراً تصبح رماداً .. ما الذى يضايقك ؟

وكأنما لم يكن الحاج والى يتوقع أن يتبين متولى حقيقة مشاعره ، فهو يقول فى أسى :

ـ الهم كثير والله يا متولى .. النهاية . الحمد لله على كل شىء .

ـ ماذا ، ماذا بك ؟ عريس جديد ، والمال ـ والحمد لله ، موفور وشباب وصحة ، وكل ما تشتهيه تجده .

ـ اسكت يا متولى .. اسكت لا يعرف النفوس إلا خالقها .. اسكت لا أراك الله ما أنا فيه .

ـ يا رجل توكل على الله .. هل أحضر الشربات ؟

ـ بل القهوة يا متولى . ولتكن بغير سكر .

يا رجل أعوذ بالله ، أهو حسد ما أصابك ؟ .. ماذا بك قل لى إنك منذ فترة طويلة مهموم ، وقد حسبت أنك حين تتزوج سيزول عنك الهم ، فإذا أنت تصبح تعسا ، أين الضحكة الخالية من التفكير ؟ أين النكتة الرائعة من كل كدر ؟ أين أنت يا حاج والى ؟

ـ لا عليك يا متولى .. لا عليك ، هكذا أمر الله .

ـ يا رجل أنت متزوج من قريب ، أهذه حال رجل تزوج من قريب ؟

ـ أمر الله يا متولى .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولكنى رغم هذا سأحضر لك الشربات لن أتأخر ، شربات ، شربات مهما تكن مهموماً ، شربات .

وخرج متولى وخلت الغرفة بالحاج والى ، وثقل عليه الصمت وثقل عليه التفكير الصاخب . وود لو عاد متولى ولو ليشقشق بهذا الحديث الذى تعود أن يشقشق به . ولكن متولى آثر أن يتركه ، ولو كان يعلم أن حديثه الفارغ أهم عنده من الشربات الذى يصر على إحضاره ما تركه ، وتأخر متولى ، وسمع الحاج والى صوتا واهنا ينبعث غير بعيد من مجلسه ، ونظر فرأى مصيدة فيران فاغرة فاها فى شراهة يقف حيالها فأر يلوب حواليها مصطنعا الذكاء والحذر ، مقدماً حينا على اللقمة التى تبدو للنظرة المجردة سائغة سهلة المنال ، محجما حينا آخر وكأنما يريد أن يعرف ماذا ستفعل اللقمة أو المصيدة إن هو أعرض عنها ولم يقدم . وانشغل الحاج والى بالفأر واللقمة والمصيدة ، وأمعن الفأر فى مداورته ثم هاجم اللقمة فجأة ، وكأنما أراد أن ينتهز من المصيدة غفلة ويختطف اللقمة ولكن المصيدة لم تكن تغفل ، فما هى إلا أن أصبح الفأر جميعه داخلها حتى أطبقت عليه فمها الشره . ونظر الفأر إلى باب المصيدة نظرة حسيرة ، ثم عاد إلى اللقمة فأكل جزءاً منها ، ثم ما لبث أن عافها .. ونادى الحاج والى :

ــ يا متولى ، يا متولى .

ولم يجب متولى النداء وإنما دخل الغرفة زين العابدين بك ...

رجل فى أواسط العمر أبيض الوجه سمح الملامح ، يبدو عليه حرص على أن يأخذ من الحياة أحلى جوانبها ، فهو متهيىء دائماً لهذا الجانب الحلو من الحياة بإبتسامة مشرقة لا تفارق وجهه ، وجسم مليء منعم لا يحب أن يمنع نفسه من لذائد الحياة . وقد كان زين العابدين بك فى سن الحاج والى وإن كان مبسوط الجسم عريضه ، وكان الشيب قد بدأ يرود فوديه فى تؤدة وهدوء . وقد كان شأنه فى إنجاب الذرية شأن الحاج والى فهو أيضاً لم ينجب أطفالاً ، وقد حاولت زوجته قدر طاقتها أن تنجب له بنين أو بنات ولكنها لم

تفلح . وييئس زين العابدين ولم تيأس زوجته . وقد رأى زين العابدين ألا يجعل يأسه يعوق أملها ، فهو يترك لها مطلق الحرية أن تفعل ما تشاء ، من عرض على أطباء إلى استماع إلى وصفات بلدية إلى غير ذلك . لا يقف دون مطلب من مطالبها وإن كان هو قد شغل نفسه بغير ذلك ، فهو مسرف غاية السرف فى إمتاع نفسه لا يعوقه عما يريد شىء ، على استعداد دائماً أن يقترض ويبيع ليفعل ما تصبو إليه نفسه ، فهو كثير الولائم ، كثير الذهاب إلى القاهرة يحب لياليها جميعاً والحمراء منها خاصة ، ولولا أن الفلاحين قد ثاروا على الإنجليز فقطعوا الخطوط الحديدية التى تصل القرية بالقاهرة ، ما استقر زين العابدين فى القرية . إلا أن الثورة اندلعت لا يقف فى سبيلها شىء وانقطعت الأسباب بالقاهرة ، وكان زين العابدين بالقرية فأرسل فلاحين يشاركون فى قطع الخطوط ، وجعل أمره إلى الله وأقام بالبلدة . وحين عسكر الإنجليز على مشارف القرية أبى أن يتصل بهم برغم الجهد الجهيد الذى بذله كبيرهم فى الاتصال به ، ولم يكن ذلك صادراً إلا عن مشاعره الصادقة . وراح الإنجليز يحاولون إصلاح الخطوط المقطوعة فلا يجدون من الفلاحين إلا ازدراء ، وقد حاولوا أن يغروا زين العابدين بأنهم سيسعون له أن ينال رتبة الباشوية فلم يكن هذا الإغراء كافيا ، ورفض أن يعاونهم وإن كان فى دخيلة نفسه يتحرق شوقاً أن يتم إصلاح الخطوط الحديدية ليجد سبيله إلى القاهرة . لم تكن زوجته تعلم عن حياته فى القاهرة شيئاً ، بل هى لا تعلم أنه يبيع من أرضه شيئاً ، كل ما تعرفه من شأنه أن تطلب منه مالا لتذهب إلى الطبيب أو لتشترى ما يلزم لوصفاتها فلا يبخل عليها .

وقف الحاج والى يسلم على زين العابدين ، فعاجله هذا قائلاً :

ــ مبروك يا رجل .

وقال الحاج والى حسيراً :

ـ لا تهنئنى يا زين العابدين بك .

ـ لماذا ؟

ـ لو تعرف ما أنا فيه ما هنأتنى .

ـ خيراً يا رجل . ماذا بك ؟

ـ لا واللّه ليس خيراً أبداً .

ـ قل ماذا حدث ؟

ـ لا شيء .. تزوجت .

ـ وهل هذا يحزنك ؟

ويدخل متولى حاملا الشربات ويقول زين العابدين .

ـ أحسنت صنعاً يا متولى .

وقال متولى :

ـ تفضل يا حاج ... مبروك .

وأخذ الحاج الكوب ووضعه على المنضدة ، وقال زين العابدين :

ـ ماذا بك ؟

وقال متولى :

ـ يا سيدى إنه منذ جاء وهو بهذا النكد .

وقال زين العابدين :

ـ عجيبة ؟

وخرج متولى وهو يقول :

ـ عجيبة .

والتفت زين العابدين إلى الحاج والى :

ـ ماذا يا حاج والى ؟

ـ ألم تعرف كيف تزوجت يا زين العابدين بك ؟

- نعم عرفت .

- عرفت أن زوجتى هى التى خطبت لى ؟

- نعم ... ولا أكتمك . لقد اندهشت لهذا وكنت أريد أن أسألك منذ سمعت ولكنك لم تأت .

- خجلت أن ترى وجهى .

- ولماذا تخجل ؟

- ما الذى يجعل امرأتى تخطب لى ؟ . لابد أنها رأت حرصى الشديد على الإنجاب .

- نعم ... لا شىء فى ذلك .

- أليس هذا مخجلاً ؟

- لماذا ؟

- كيف سولت لى نفسى أن أهين كرامة زوجتى إلى هذا الحد ؟ . يا سعادة البك أنت سيد العارفين .. ألا تتصور مقدار الألم الذى عانته امرأتى وهى تخطب لى امرأة غيرها ، أقسم باللّه يا سعادة البك إننى منذ جاءت زوجتى وأنا أستحى أن أكلمها أمام الحاجة .

وصمت زين العابدين ، وأحس الحاج والى ببعض الراحة وهو يلقى هذا الحديث لأول مرة إلى مسمعى إنسان ، واسترسل :

- أكل هذا من أجل الأولاد ؟

- وهل الأولاد شىء بسيط يا حاج والى ؟

- واللّه يا سعادة البك أصبحت لا أدرى .

- اسمع يا حاج والى ، لقد سمعت عن زوجتك الحاجة أنها عاقلة وكريمة ، ولكنها بما فعلته جعلت نفسها مثلا أعلى فأكرمها .

- أكرمها .. أكرمها يا سعادة البك ، إننى لا أدرى كيف أعاملها ؟ يتهيأ لى أحياناً أنها ليست من البشر .. ولا أدرى كيف أعامل الملائكة ، لقد جعلتنى لها عبداً .. أنا عارف يا بك .. أنا عارف بشعور المرأة وبغيرتها ... عارف ... كيف أستطيع أن أوفيها حقها ؟

- أنت محق يا حاج والى .. الحاجة بمبة تستحق ما تقوله عنها .

- ولكن ... ولكن أنا ... أنا خجلان يا سعادة البك .

- أخطبت لك دون أن تخبرك ؟

- أخبرتنى بعد أن خطبت .

- وماذا فعلت ؟

- فعلت ما لا زلت أخجل منه .

- ماذا ؟

- ثرث ولكننى فى دخيلة نفسى كنت مسروراً .

- كيف ؟

- غضبت وقلت لها أتزوج ؟ هذا كلام فارغ .... و .... و .... ولكن لم أفلح فى إخفاء حقيقة نفسى .... إنها زوجة عشرين سنة وذكية ، أدركت أننى مسرور فإذا هى تقول فى كل هدوء : سأشترى لعروسك بعض ملابس وتتزوجها فى الأسبوع القادم إن شاء اللّه . وكأنما ألقت على رأسى ماء بارداً فإذا أنا صامت وكأنى مستسلم ، ثم قمت وخرجت فإذا جميع من فى البلدة يعرفون أمر الخطبة فهم يهنئوننى ، وأرى فى عيونهم ابتسامة تجمع بين التعجب والحسد . يخيل لى أنهم كلهم يتمنون أن تكون زوجاتهم مثل زوجتى مع أنهم جميعًا آباء لهم من البنين ما تضيق به البلدة . لم أجد من أشكو له همى إلا أنت ولكنى كنت خجلا منك ، فغبت عنك ثم لم أجد بدا من أن أتغلب على خجلى

وإلا انفجرت بالألم الذى أعانيه فجئت .... وارتحت أن قلت لك ما قلت يا زين العابدين بك . أبقاك الله لنا .

ــ يا رجل . المسألة لا تستأهل كل هذا .

ــ بل تستأهل يا سعادة البك ، ولكن ماذا أفعل ؟ .. لم تعد هناك فائدة .. أيستحق الأطفال كل هذا ؟ ... أيستحق الأطفال أن تطعن امرأة صالحة كزوجتى كرامتها كامرأة ، وتتجاهل أنوثتها إلى درجة أن تخطب لزوجها امرأة لتنجب له أطفالاً ؟ .. ماذا أصنع بهم ؟ لماذا كنت شديد الرغبة فى الإنجاب إلى درجة أن جعلتها تقتل أنوثتها بيديها وكأنها تنتحر ؟ ماذا سأصنع بهم . وماذا سيجرى فى الدنيا إذا لم أنجب أنا أطفالاً ؟ هل تتوقف الدنيا عن الدوران ؟ ماذا أصنع بهم ؟ أرى من عندهم أطفال يضيقون بهم ، وأراهم إذا مرض أحدهم يكاد الأب يموت من قلق وخوف وشفقة ! ثم إذا صح الطفل المريض وجدت الأب ضيقاً غاية الضيق بما يحمل من مسؤولية . لا تؤاخذنى يا سعادة البك فأنت لم تنجب ... أى شعور عجيب يشعر به الأب فيجعلنى حريصاً كل الحرص على أن أنجب ؟ ... أنت لا تدرى شعورى هذا ... أم تراك تدرى ؟

ــ بل لا أدرى ... حقا أنا لا أدرى ، ولا أكتمك فقد كنت أحب أن أدرى .

ــ أهو حرصنا على أن يظل اسمنا من بعدنا .

ــ وماذا يهم من بعدنا أن بقى اسمنا أو لم يبق ؟

ــ فماذا إذن ؟ .. أى شىء عجيب فى هذه المخلوقات الصغيرة الجبارة يجعلنا نحبها ونحرص عليها ونتوق إلى أن نصبح آباء لها ؟

ــ لعلنا نحب فيهم الحياة يا حاج والى فهم حياة جديدة ، وإقبال الأطفال يشعرنا أو هو يشعر الآباء أن الحياة مازالت تستطيع أن تجدد نفسها .

- وماذا نحب في هذه الحياة ؟ هذه الحياة التي لا نستطيع فيها أن ننال ما نهفو إليه إلا على أشلاء أحبائنا وكرامتهم !!

- ليس هناك كثيرون خطبت لهم زوجاتهم يا حاج والى .

- نعم ولكن هناك كثيرين سعوا إلى الإنجاب بشتى الوسائل وسهروا الليالى الطوال لتحقيق هذه الأمنية . لقد كانت زوجتي شريفة فيما فعلته ، سمعت عن نساء أخريات بذلن أنفسهن لغير أزواجهن ليهبوا لأزواجهن أطفالاً ، أحبوا أزواجهن إلى درجة الخيانة من أجلهم ، هل يستحق الأطفال هذا ؟ هل يستحقون . أم نحن مخدوعون ؟ ... أنا حائر يا سعادة البك .. حائر .. ماذا في هذه المخلوقات الصغيرة ؟ .. أى سحر فيها ؟ .. إنهم أقوى من الحياة يا زين العابدين بك .. أقوى من الحياة .. يهون على المرأة أن تموت ولا ترى زوجها مع غيرها ، ولكن زوجتى خطبت لى ، خطبت لى لأنها أحست إلى أى مدى أريد أن أرى لنفسى أطفالا .. هذه المخلوقات اللعينة .. اللعينة .. اللعينة .

- ولكنك مع هذا تريد أطفالا يا حاج والى .

وأطرق الحاج والى لحظة ، وخيل إليه أن سحابات من ضباب تغشى ناظريه ، ثم قال فى أسى :

- نعم يا زين العابدين بك .. نعم .. إنى أريد أطفالاً .

(٣)

تعتبر الحاجة بمبة أمهر سيدة بالقرية في رؤية المستقبل فى الفنجان ، وطالما قصد إليها نساء القرية لتطلعهن على ما تخفيه لهن الأيام . ويا طالما رأت بقايا القهوة فى فنجانها ، وياطالما رأت الأطفال قادمين إليها لا تحصيهم عدداً . وها هى ذى اليوم ترى أن تحقيق أمنيتها قريب فإن الفنجان لم يخبرها إن كانت هى التى ستلد هؤلاء الأطفال أم أن غيرها ستنجبهم لها ، وإنما غاية ما أنبأها أن الأطفال سيفدون إلى البيت ، وهكذا اقتنعت أن فنجانها لم يخطئ . وها هى ذى تنتظر الأطفال من صالحة . ولكنها غير سعيدة يزيد من تعاستها أنها مصممة على أن تبدو سعيدة . وكانت الحاجة بمبة بيضاء فى خدودها حمرة ، وفى وجهها طيبة واستدارة ، ترهل جسمها ولم يفقد انسجامه ، وهى صاحبة حديث شهى سهل المأخذ ، وهى قريبة الغور سمحة ولكنها قادرة على أن تحسم أمورها ، قادرة أيضاً على إنفاذ ما تريد . وقد أعجب بها الحاج والى وهو طالب فى الأزهر الشريف ، وتزوجها يوم أزمع البقاء فى القرية بعد أن ظلت مخطوبة له مدة أربع سنوات كاملة . وقد شهد العام الأول من زواجهما صفاء وحباً . أما العام الثانى فقد كدره لهفتها أن تصبح أمًّا ، وزاد هذه اللهفة تساؤل قريباتها عما أخرها عن الإنجاب ، ثم صارت السنوات التالية جميعاً كفاحاً من أجل الإنجاب ، وقد كان العلم فى ذلك الحين يضرب فى غياهب من الجهل ، ولم يكن من المعقول فى ذلك الحين أيضاً أن ترى الحاجة بمبة غير النساء ، فزوجها رجل صارم وقد زادته تربيته الدينية صرامة . ولم يكن فى الحجاب الذى يفرضه المجتمع على النساء فى ذلك الحين أى عجب ، بل إن النساء حتى تلك الأيام لم يشعرن بأية غضاضة أو ضيق . وقد كانت الحاجة بمبة من أولئك النسوة اللائى يرين أن أوامر أزواجهن مقدسة لا سبيل إلى التهاون فيها . وكان الحاج والى يحب زوجته وما كان ترهلها يزيده إلا

حبا لها ، فقد كان الجمال كل الجمال أن تكون المرأة سمينة حتى لا يكاد زوجها يحيطها بذراعيه . ولولا رغبة الحاج والى اللاهفة فى أن ينجب أطفالا لما فكر فى الزواج فقد ازدادت زوجته جمالا على جمالها فى السنوات الطويلة التى عاشتها معه ، فإنه لم يكن يأخذ عليها يوم تزوجها إلا أنها نحيفة القوام .

ولم يكن الحاج والى من هؤلاء الرجال الذين يميلون إلى العنف فى معاملة زوجاتهم ، بل كان رقيق المعاملة يحب حديث زوجته ويأنس إليه . وكم تمنى أن يتخلص من رغبته فى إنجاب أطفال ، بل لكم خيل إليه أنه تخلص من هذه الرغبة ولكنها ما تلبث أن تثور عاصفة فى نفسه ، وقد أخذ نفسه منذ تزوج صالحة أن يزيد من اهتمامه بالحاجة بمبة ، فهو لا يخرج من البيت إلا بعد أن يجلس إليها ويشرب معها قهوة الصباح .

وقد بكر فى يومه هذا ونظر إلى الشباك فوجد السماء متجهمة صلبة الملامح .

وكانت النخلات التى يطل شباكه عليها تهتز فى غير سرور ، فقال فى نفسه : « أهذا ربيع ؟ ! اللهم اجعله خيرا » . ثم صلى ركعتى الصباح والتفت إلى صالحة يسألها :

— لماذا لا تصلين الصبح يا صالحة ؟!

— سأصليه عندما تخرج يا عم الحاج !

— أتصرين على أن تقولى يا عم الحاج ؟!

— تعودت قولها .

— إن أردت الحق فأنا أحب أن أسمعها منك ولا أدرى لماذا ، رغم أنها تجعلنى أحس أنك صغيرة وأنى كبير ، ولكنى أحب أن أسمعها منك .. لا غيريها .

وضحكت صالحة وهى تقول :

- إنى لا أستطيع أن أغيرها .

لكن الحاج والى تجهم لحظة وقال :

- ألم تعلق الحاجة بمبة عليها بشيء ؟

ودهشت صالحة بعض الشيء وقالت :

- تعلق على ماذا ؟

- على قولك يا عم الحاج .

- وبماذا يمكن أن تعلق عليها ؟

- قد ترى بها تدليلاً أو شيئاً من هذا القبيل ..

- لا تخش شيئاً ، فإن أحداً لا يرى فيها تدليلاً إلا أنت .

- لا تؤاخذينى يا صالحة ، فالحاجة بمبة ست طيبة ولا أريد أن أغضبها .

- يا عم الحاج لا تخش شيئاً ، فأنا أيضاً أحبها وأحترمها من أجل خاطرك ومن أجل خاطرها هى أيضاً ، فأنا أعرف أنها لا تكرهنى ، أو هى على الأقل لا تظهر لى إلا كل خير ، فلماذا أغضبها ؟

- اللّه يسترها معك يا بنتى .

- إننى أعمل لها كخادمة لا أعصى لها أمراً ، ولكننى أحس أن فى هذا راحتى مادام يرضيك .

- ولكنك راضية كل الرضا .

- كل امرأة تريد أن تكون ست بيتها .

- ألا يكفيك أن تكونى ست هذه الحجرة ؟

- يكفى أن أعيش معك يا عم الحاج .

- اللّه يرضى عليك يا صالحة .. لقد تأكدت أن اللّه راض علىّ منذ عرفت حقيقة أخلاقك ، وازددت تأكداً من رضاه سبحانه وتعالى يوم بشرتنى بما تحملينه لى فى أحشائك من خير .

ـ أنت رجل طيب يا عم الحاج .

ـ أفوتك بخير .

ـ مع السلامة .

وخرج الحاج والى إلى بهو بيته فوجد الحاجة بمبة جالسة فى مكانها وأمامها معدات القهوة فبادرها :

ـ صباح الخير يا ستنا .

ـ صباح الخير يا حاج . أهلاً .

ـ هل شربت القهوة ؟

ـ من غيرك ؟ لا واللّه لا أذوقها من غيرك أبداً .

ـ واللّه يا حاجة لا أجد للقهوة طعماً إن لم تكن بيدك .

وبدأت الحاجة بمبة تعد القهوة وهى تسأله :

ـ إلى أين العزم إن شاء اللّه ؟

ـ إلى الشيخ حسنين المحلاوى ، فقد وعدنى اليوم أن أزوره وأشرب عنده القهوة وأتقاضى دينى .

ـ أتذهب إلى العشماوية فى هذا اليوم العاصف ؟

ـ يا حاجة بمبة نحن فلاحون .. إذا قبعنا فى بيوتنا من أجل الجو تعطلت أعمالنا .

ـ ربنا يكون فى عونك يا حاج والى .

وكانت القهوة قد أعدت ، وأخذ الزوجان يحتسيانها وفى ذهن كل منهما أفكار تضطرب يحاول أن يسترها عن رفيق عمره ما وسعه الجهد . وقال الحاج والى :

ـ لو كانت القطارات تسير لوجدت الجرائد فى المحطة .

ـ لا عليك ، فالإنجليز يعملون بهمة فى إعادة الخطوط الحديدية .

ـ والله يا حاجة لا يضايقنى من هذه المهمة إلا أننى سأمر على الإنجليز .

ـ يا أخى مالك وماهم ؟!

ـ يكفى أنى سأنظر إلى وجوههم المسلوخة .

ـ إذا وصلت إليهم فانظر إلى الجهة الأخرى .

ـ على رأيك .. أفوتك بعافية ..

ـ انتظر .

ـ ماذا ؟

ـ سأقرأ لك الفنجان ..

ـ كدت أنسى والله يا شيخة .

ـ انتظر .. أرى كأنك فى طريق ستحصل منه على مال ..

ـ لا يا حاجة هذه ليست فى الفنجان ، لقد أخبرتك الآن أننى سأتقاضى دينى من الشيخ حسنين ..

ـ انتظر ، وأرى كأنك جالس فى وسط الطريق .

ـ إنى سأقطع الطريق كله جالساً ، لأنى سأمتطى الحمار .

وضحكت الحاجة بمبة وهى تقول :

ـ لابد أنك ستقع من على الحمار يا حاج والى ، لأنى أراك جالساً على الأرض !!

وضحك الحاج والى قائلاً :

ـ هذا هو الجديد . لا تشك أن هذا هو الجديد . لم يبق إلا أن أقع من على الحمار .

ـ هذا كلام فنجانك .. وأراك منصوراً والله يا حاج والى .. إن شاء الله أنت منصور على أعدائك يا حاج ..

ـ ربنا يسمع منك يا حاجة ، فأنت طيبة ونفسك طاهر .. أفوتك بعافية .

ـ عافاك الله .

وخرج الحاج والى إلى الطريق وقد ركب حماره ، وكان الفلاحون فى طريقهم إلى حقولهم وفئوسهم على أكتافهم ، وفى أيديهم دوابهم ، وتبادل الحاج والى التحايا مع الفلاحين ، وقد كان الحديث بينهم عن الثورة المشتعلة فى القاهرة والريف فقد كانت تسيطر على سماء مصر فى ذلك الحين أجواء من الحيرة والاضطراب .

أما أبناء مصر أنفسهم فقد كانوا بعيدين عن الحيرة كل البعد ، فقد عرفوا الغاية والطريق فهم ينشدون الحرية ، والثورة هى سبيلهم إليها فهم يشعلونها فى كل ما تقع عليه أيديهم . تأتيهم الأنباء من مصر فيها قهر من المحتل ، وعنف وعسف وظلم . فلا يزيدهم شيء من هذا إلا إصراراً واندفاعاً ... فهم التيار الآخذ لا يصده عن متمناه شيء . سمعوا عن اعتقال سعد وصحبه فثاروا .. وسمعوا عن مأمور الضبط الذى قبض على الأجانب المستكبرين بالحماية الإنجليزية فأجرى معهم التحقيقات الرسمية ووقعها باسمه ثم استقال من الحكومة . فشعروا أن شباب مصر يستطيعون أن يبلغوا الآمال وإن غاب عنهم القادة والزعماء . وكانت الثورة فى داخل النفوس .. فهى نيران . وكان وجود الإنجليز وحده كافياً أن يمد هذه النيران بوقودها ، فهى متأججة دائمة الأوار .

وانقطعت الأنباء عن الفلاحين فى قراهم بعد أن قطعوا الخطوط الحديدية ، ووقفت السلطات الإنجليزية تعيد الخطوط إلى أمكنتها وتمنع الحوادث ، فسكن الفلاحون ينتظرون ولكن الثورة فى نفوسهم لم تسكن ، فلا حديث لهم إلا عما كان من الحوادث وما يرغبونه من مستقبل .. وكان الحاج والى وهو فى طريقه إلى العشماوية لا يكاد يمر بجماعة من الفلاحين فى طريقهم إلا وسمع كلمة « سعد » أو كلمة « الإنجليز » أو كلمة « الثورة » أو كلمة

« القضبان » .. لم يسمع الحاج والى فيما سمع كلمة السماء أو القمح أو الأرض ، أو كلمة من هذه الكلمات التى تعود أن يتبادلها أبناء القرية فى مألوف حياتهم .

وبلغ الحاج مشارف المحطة ، وعبر مواضع القضبان الحديدية المنزوعة ، معتمدًا أن يلقى بنظره بعيداً عن الإنجليز . وما كاد يبتعد عنهم حتى أطلق تنهدة مستريحة وهو يقول :

ـ الحمد للّه ..

وكأنه خرج من مأزق حرج . وبلغ الحاج والى مقصده وتقاضى دينه وعاد طريقه وعبر موضع القضبان مرة أخرى وأوشك أن يبتعد ويطلق التنهدة . ولكن طلقاً نارياً كان أسرع من تنهدته ! .. وفى لحظة خاطفة كان الحاج والى جالساً فى الطريق فوق الحمار المتهاوى تحته .. ومر بذهنه أنه أصيب فلبث مكانه ينتظر أن ينبثق الألم من أى مكان فى جسمه . وطال لبثه ولكنه لم يتألم ، فأخذ يتحسس ما تصل إليه يده فعادت إليه يده كما أطلقها لم يعلق بها شىء يؤكد شكه . ففكر أن يعتدل فحرك جسمه فتحرك معه ، وتهيأ ليقف وأخذ يرسم حركاته قبل أن يتحركها .. فراح جسمه يطاوعه فى كل ما يحاوله حتى استقام أمره أخيراً واعتمد رجليه ووقف . ونظر إلى حيث كان جالساً فتبين الحادث بأكمله ، لقد أطلق الإنجليز الرصاص على الجزء الأعلى من ذيل الحمار بأكمله ، لو لم يكن الحاج والى مشغولاً بما أصابه ، ولو لم يكن ضجيج الذهول والاضطراب محيطاً به من كل جانب ، لسمع القهقهات العالية التى كان الإنجليز يطلقونها بعد عيارهم . وقصد إليهم الحاج والى فى ثورة عاتية يمسك بأطرافها فى نفسه خوفاً من عيار نارى آخر يصوب إليه هو فى هذه المرة ، ما أرخص الأرواح عند الإنجليز وما ضر أن يموت هو كما مات الحمار ، فما كانوا يقيمون كثير فرق بين إنسان مصرى وحمار ، فقصد

إليهم يفكر فيما يقول أو يفعل ، وتقدم إليه قبل أن يصل شاب مصرى يرافقهم من قبل مصلحة السكك الحديدية وقال :

ـ على رسلك يا شيخ .

وقال الشيخ فى غضبته :

ـ أيرضى اللّه هذا ؟

ـ وهل يعرف هؤلاء اللّه ؟!

ـ ماذا فعلت حتى يفعلوا بى هذا ؟

ـ لا شيء ، لقد تراهن أحدهم مع آخر على أنه يستطيع أن يصيب الحمار الذى تركبه دون أن يصيبك ، وها هو ذا يضحك لأنه كسب الرهان . لو كان خسر الرهان ، لخسرت أنت حياتك .

ـ الحمد للّه .

ـ لا إله إلا اللّه ... لا إله إلا اللّه !

ونادى أحد الإنجليز الشاب المصرى فذهب إليه ، وأوشك الحاج والى أن ينصرف ولكن الشاب ناداه :

ـ انتظر يا عم الشيخ .

فانتظر الحاج والى ، وجاء إليه الشاب وفى يده جنيه ذهبى وقال :

ـ خذ هذا .

ـ ما هذا ؟

ـ يقولون إنه ثمن الحمار .

وقال الحاج والى فى غيظ :

ـ قطعت يدى إن أخذته ..

ـ خذه بالله فإن أولاد الكلب هؤلاء لا يرحمون ، وقد يغضبون ويطلقون عليك أنت النار .. وما أسهل أن يقولوا بعد ذلك إنك حاولت أن تعتدى عليهم . خذ .. خذ ..

وأمسك الحاج والى الجنيه الذهبى ، وألقى به إلى الأرض فى شىء من الخوف وفى كثير من الحزم ، مراعياً أن يسقط الجنيه بحيث يرى الإنجليز أنه رماه ، وبحيث يجدونه أيضاً إن تفقدوه . وأولى الجمع ظهره وأخذ سمته إلى القرية منتظراً فى الخطوات الأولى أن ترديه رصاصة محكمة التصويب فيقول فى نفسه : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول اللّه » . ويملأ نفسه شعور بالكرامة ، فهو يستأنى فى خطوه وكأنما يتحدى ، حتى إذا وثق أنه صار بمنأى عن مرمى الرصاص منهم سار طريقه فى خطوات متفلتة يحمد اللّه أن نجا ، ويملؤه شعور آخر بأنه مظلوم ، تختلط فى نفسه ألوان من الغيظ ومشاعر من العزة .

(٤)

لم يكن بيت زين العابدين بك باذخ الفخامة ، وإنما كان رحب اللقاء تستقبل الداخل إليه شرفة واسعة ليست مرتفعة على الأرض إلا ببعض درجات قلائل ، ثم هي تفضي إلى بهو كبير تحيط به من الجانبين حجرات واسعة للاستقبال ، وأما الطابق الأعلى منه فهو حجرات للنوم .

وتحرص بهية هانم زكي على العناية بالمنزل بغاية ما تستطيع من نظافة وإن كانت الفئران كثيراً ما تعدو على نظافتها بما لا تحب . فهي تطاردها ما وسعها الجهد . فبهية هانم سيدة نشأت في بيت النظافة فيه قطعة من الدين والدين فيه هو كل شيء ، فهي لم تقل يوماً لزوجها إلا ما يرضيه ، شأنه أن يأمر وشأنها أن تطيع دون أن تحاول تعليل أوامره أو مناقضتها . ولولا ما يشغلها من إنجاب الأطفال لسعدت بحياتها في ظله كل السعادة ، فما ينقصها من حياتها شيء إلا أن تصبح أمًّا ، فهي تسعد حين تنظر إلى المرآة غاية السعادة ، إنها جميلة القسمات : فم متسع بعض الشيء ، يعلوه أنف صغير ، تحيط به وجنتان فيهما امتلاء وفيهما نعومة وإشراق ، يغطي الشعر الأصفر أذنيها الصغيرتين ، بادئاً من رأس متسع ، تاركاً بينه وبين العينين السوداوين جبهة صافية عريضة . وبهية ممتلئة القوام في غير إفراط ، وإنما هو القوام كما يشتهيه زوجها طولا وعرضا . ولم تكن بهية قد أدركت الخامسة والثلاثين من عمرها ، وهكذا كان أملها في الإنجاب تمهد له هذه السن الباكرة أن يزدهر ولا يتضاءل .

كان الوقت مساء ، وقد صعد زين العابدين مبكراً من الطابق الأدنى وقال لها مبتسماً :

ــ هيه . ما رأيك لو سافرنا إلى مصر في باكر ؟

ــ صحيح ؟ هل أصلحت السكة الحديد ؟

ـ سيمر بنا أول قطار إلى مصر صباح غد .

ـ ولكن لى شرطاً .

ـ ألك شروط أيضاً ؟

ـ شرط واحد .

ـ آخذك معى إلى مصر لترى أباك وأمك وتملى شروطك أيضاً .

ـ قلت لك إنه شرط واحد .

ـ أمرك يا ستى .. قولى شرطك .

ـ أذهب إلى الدكتور نجيب محفوظ .

ـ ماذا ؟

ـ دكتور مشهور فى مصر سمعت عنه من زوجة مأمور المركز ، ظلت عشر سنوات بلا خلف ، حتى كتب لها الدكتور محفوظ دواء فأصبح لها ولد وبنت .

ـ أمرك يا ستى .. أمرك .. ولكن لى أنا الآخر شرطاً .

ـ أمرك .

ـ لا تطلبى منى أن أقيم معك فى بيت والدك .

ـ لماذا ؟

ـ لا أرتاح هناك .

ـ أمرك .

ـ اتفقنا .

وكان الصباح ، ونزل زين العابدين إلى الطابق الأسفل بعد أن أوصى زوجته ألا تتأخر فى إعداد الحقائب . وكان فى انتظاره الحاج والى الذى جاء بناءً على موعد سابق .

ـ صباح الخير يا حاج والى .

ـ صباح الخير يا سعادة البك .

ـ هيه ، هل أحضرت المبلغ ؟

ـ المائة جنيه معى ، إلا أن لى كلمة .

ـ لا تقلها .

ـ لابد أن أقولها .

ـ يا حاج والى إن لم أتمتع بمالى فلمن أتركه ؟ ... هأنتذا ترى .. لا ولد ولا بنت .

ـ يا سعادة البك العمر أيامك طويل ، وقد بعت حتى الآن ما يقرب من الخمسين فداناً ، ماذا تفعل غداً إذا رزقك اللّه الولد أو البنت ؟

ـ هل كان أحد يصدق أننى سأخلف ...وهأنذا أنتظر مولودى ..

ـ اعمل معروفاً يا زين العابدين بك ، كفاك بيعاً .

ـ ربنا يسمع منك يا حاج .. لك حق ، من يدرى ؟ فها نحن أولاء سنذهب إلى الدكتور نجيب محفوظ فى القاهرة .

ـ إن شاء اللّه ربنا يستجيب لدعائنا .

ـ ربنا يهيىء الخير يا حاج .

ـ على بركة اللّه ... تفضل المبلغ ..

ـ العقد الذى معك سليم ..

ـ نعم .. أبقاك اللّه .. نحن جميعاً نشهد لك بأن بيوعك شريفة وعقودك نظيفة والحمد للّه .

ـ الحمد للّه .

ـ أستأذن أنا .

ـ مع السلامة يا حاج والى .

وقام الحاج والى وخرج . وظل زين العابدين وحده يفكر فيما قال له الحاج ، ثم ما لبث أن أبعده عن ذهنه وقام إلى شرفه داره يذرعها فى انتظار موعد القطار ، وألقى نظرة إلى الشجر الذى يحيط ببيته ، فوجد طيوراً مطمئنة الجلسة فوق أعرافه .. ما الذى يمسك بهذه الطيور هنا ؟ .. لماذا لا تذهب إلى القاهرة ولها أجنحة ؟ .. أهو الأمن الذى يشيع حول بيته ، فهو لا يصيد الطير فليس ثمة صوت قذيفة يسمع . وهل يكفى الأمل حتى تستقر الطير فوق أشجاره .. ما لها لا ترود السماء والأشجار ؟ إنها غبية هذه الطيور ، غبية .

ومال زين العابدين بك فجأة فأمسك بحجر وألقاه على شجرة حافلة بالطير ، فانبعث الحمام واليمام صاعداً فى السماء ، وحوّم مرة ثم أتبعها بأخرى ، ثم عاد إلى الشجرة واطمأن به المقام ، وزين العابدين ما يزال يقول :

ـ غبى هذا الطير غبى .

حان موعد القطار ونزلت بهية هانم تتقدمها الحقائب ، واستقبل الزوجان العربة إلى المحطة ، وأقبل القطار بعد قليل بطيئاً فى قدومه ، وكأنه يتحسس طريقه ليستوثق أن الإصلاح قد تم بإتقان ، وحين بارح القطار المحطة بطيئاً نظر زين العابدين إلى السماء وارتاحت نفسه حين رأى يمامة تسير بجانب القطار وكأنها تسابقه ، ثم ما لبث أن انشغل عن السماء بالأرض . وعاد ينظر إلى الطريق الذى انقطع عن السير فيه أشهراً طوالاً ، وشاركته بهية هانم فى الصمت والنظر إلى الطريق حتى إذا وصلا إلى القاهرة طلبت بهية فى تردد أن يذهبا إلى الطبيب أولاً ما داما قد وصلا فى موعد مناسب ، والتقى طلبها برغبة زين العابدين الذى أراد أن ينتهى من هذه المهمة ليفرغ بعد ذلك إلى القاهرة التى بلغ شوقه إليها أقصى مداه . وتم لهما ما أرادا وعادا

من عند الطبيب وقد كتب الدواء للست ، واستقبلت التذكرة بأمل عريض مشرق ، واستقبلها زين العابدين كما تعود أن يستقبل كل وصفة جديدة يجيء بها إلى زوجته .

واشترى لها الدواء وذهب بها إلى بيت أبيها ، وقبل أن يدخل قال سائق العربة الأجرة :

ـ هل أنتظر سعادتك ؟

وبدون وعي قال زين العابدين :

ـ نعم .

وصعد فأدى زيارة عاجلة ثم استأذن وخرج .. إلى القاهرة .

* * *

كان « بار الأنس » هو البيت الحقيقي الذى يقطنه زين العابدين حين يأتى إلى القاهرة ، وكانت صديقته فاطمة العراقية .. فتاة أتقنت إرضاء الرجال ، فنصيبها من زوار البار هم الأغنياء الذين يحبون أن يبذلوا أموالهم فى كرم وإسماح . وقد كانت فى هذه الشهور التى غاب فيها زين العابدين قد وطدت صداقتها بوجيه آخر من وجهاء القاهرة الذين لم تمنعهم الثورة وتقطيع الخطوط الحديدية من زيارة البار . وهكذا كان دخول زين العابدين إليها أمراً لا تستقبله بالحفاوة والترحاب فى دخيلة نفسها ، وإن كانت قد أبدت له كل ما تعلمته طوال حياتها العريضة من حفاوة وترحاب . جلست إليه بضع دقائق، ثم استأذنت وقامت إلى زميلتها أنيسة ولعة وقالت :

ـ هذا السوار يعجبك من زمان ؟

ـ نعم .

ـ وهذا القرط ؟

ـ ما شأنك ؟



ـ الذى أحضر السوار والقرط هو هذا الرجل الجالس هناك .

ـ نعم أعرفه زين العابدين .

ـ يدى مشغولة فى هذه الأيام بغيره .

ـ فأنت تتنازلين لى عنه .

ـ بعينك .

ـ فماذا تريدين ؟

ـ كم تدفعين لأتركه لك ؟

ـ أعطيك أول هدية يحضرها .

ـ وإذا كنت خائبة ولم تستطيعى أن تنالى منه هدية مناسبة فماذا أعمل أنا ؟

ـ وماذا أعمل أنا ؟

ـ تدفعين فيه ما أطلبه الآن . واللّه يهنيك به بعد ذلك ..

ـ قولى .. ماذا تريدين ؟

ـ هذا المصحف الذى يتدلى على صدرك .

ـ هذا .. لقد ثمنته بعشرين جنيها .

ـ أنت تعرفين أننى أستطيع الاحتفاظ برجلين وبعشرة عند اللزوم .

ـ النهاية .. أمرى إلى اللّه .. خذى .

وخلعت أنيسة المصحف وتقدمت هى وفاطمة من مائدة زين العابدين وجلستا ، وقالت فاطمة فى دلال :

ـ يا زين العابدين بك .. أنت فاجأتنى بزيارتك ، وأنا الليلة مشغولة فى فرح ، وقد رجوت أنيسة أن تصاحبك الليلة .

ـ يا ستى أهلا بأنيسة .

وتم الاتفاق دون أى اعتراض من زين العابدين ، فما كان يمكن أن يعترض بمشهد من أنيسة ، وهو بعد ليس حريصا كل الحرص على أن تطول صلته بفاطمة أكثر مما طالت ، وما كادت فاطمة تقوم عنهما حتى سارع هو يسألها :

- أين نتعشى الليلة ؟

وكانت خبيرة بما يرضى الرجال .. خبيرة أيضاً بالأمكنة التى يمكن أن تقصد إليها إذا كان معها زبون على هذا الغنى الذى يتمتع به زين العابدين . وسرعان ما اكتشف فيها زين العابدين هذه المواهب فهو يسألها بعد العشاء :

- وأين الغداء ؟

- غداء .. أى غداء يا رجل ، ونحن ما نزال فى العشاء .

- أقصد غداً .. ماذا بك لماذا لا تفهمينني ؟

- غداً ؟ أى غد يا سعادة البك .. الكلام كان عن ليلة واحدة .

- وأنا لا أعرف لليلة واحدة .

- وأنا لا أعرف على ضرة . فماذا أنت فاعل بفاطمة ؟

- من باعك بعه .

- يا راسى .

- يا ستى ، كم من أفراح أحييتها ونحن أصدقاء ولم تعتذر.

- تعجبنى .

- عارف .

- نتغدى غداً فى روض الفرج .

- يا بنت .. فى الهواء الطلق على النيل .

- فاهمنى ؟

- وغداً سأكون فهمتك أكثر وأكثر .

وفى الغد قصد هو وأنيسة روض الفرج ، واختار منضدة على النيل وأمر بالغداء ، وطلب زين العابدين حمامة مشوية وطلبت هى كبابا ، وفى انتظار الأكل نظر زين العابدين إلى السماء وكأنما يريد أن يرى مقدار سطوع الشمس ، ولكن أدهشه أن وجد حداءات كثيرات تحوم حول المكان ، وقال لأنيسة :

ـ ماذا تفعل كل هذه الحداءات هنا ؟ ..

ـ كل مخلوق يبحث عن رزقه .

وسكت وجاء الطعام واستقر على المائدة ، وبدأ زين العابدين يأكل فقطع لنفسه لقمة خبز غمسها فى سلطة الطحينة ، حتى إذا ابتلعها مد يده إلى الحمامة المشوية وقد أخذ به الجوع مأخذه ، ولكن لم يكد يمد يده حتى انقضت على الحمامة المشوية حدأة بارعة ، فإذا الحمامة المشوية فى مخالبها ، وإذا هى فى السماء مرة أخرى قبل أن يفيق زين العابدين من المفاجأة المذهلة .

* * *

خرج زين العابدين من الفندق يريد أن يقصد حى الصاغة فقد كان لابد له أن يشترى هدية للصديقة الجديدة . ووقف ينتظر عربة أن تمر به ولكن طال به الوقوف دون أن تمر به عربة ، وسئم زين العابدين الانتظار فراح يمشى آملا أن يلتقى بعربة . ولم يمر بذهنه أنه من العسير أن يجد هذه العربة فقد ترك القاهرة حين تركها قبل الثورة ، وقائدو العربات يلحون على المارة أن يركبوا ، وحين نزل فى أمسه من القطار لم يجد صعوبة تذكر فى الحصول على عربة ، وقد ظلت العربة معه حتى عاد إلى الفندق ، وسأله السائق إن كان يريده فى اليوم التالى . ودهش من السؤال ولكنه وافق ، وظن أن سائق العربة يريد أن يضمن رزق غده ، ولم يشأ أن يحطم آماله فوافق ، وظلت معه العربة طوال اليوم التالى حتى عاد إلى الفندق ، فهو إذن يجهل كل الجهل ما

ألم بالمواصلات حتى فى القاهرة ، وقد أوقعه هذا الجهل فى خطأ يدفع ثمنه الآن ، فهو لم يطلب إلى السائق أن يعود فى يومه هذا فما كان يتصور أنه لن يجد عربة فى أية لحظة يشاء . ومرت به عربة كارو فوجدها مزدحمة ووجد بها قوماً لم يتعود أن يرى مثلهم على عربة كارو ، وتولته الدهشة . ولكن لم تكد تمر من أمامه حتى ظهرت عربة أخرى كارو أيضاً ، ولم تكن مزدحمة فإذا سائقها يقف بجانبه ويقول :

ـ تفضل يا بك .

ـ ماذا ؟

وأوشك أن يغضب ولكنه نظر فوجد الراكبين لا يقلون عنه وجاهة .

وقال أحدهم وهو أفندى أنيق :

ـ تفضل يا بك ، يظهر أنك حديث القدوم من الريف .

وقال زين العابدين وهو لا يزال فى دهشته :

ـ نعم .

ـ هذه هى وسيلة المواصلات الرسمية الآن ، فسائقو الحنطور مضربون .

وقال السائق :

ـ أتحب أن تجلس فى الدرجة الأولى ؟ ..

ـ ماذا . وهل عندك درجة أولى ؟

ـ نعم .. هنا فى المقدمة .. تجلس على وسادة ، وستجد الجلسة مريحة ونظيفة .

ـ وكم الأجر ؟

ـ قرشان . إلى أين أنت ذاهب ؟ ..

ـ إلى الصاغة .

ـ تفضل .

ودفع زين العابدين القرشين وركب واستأنف الحديث :

ـ ولكني ركبت بالأمس عربة حنطور .

وقال السائق :

ـ لأنك ركبتها من المحطة .

ـ نعم . والترام ؟

ـ أضرب عماله أيضاً .

وقال أحد الراكبين من الوجهاء :

ـ لقد وجدنا « الكارو » أمتع .

وقال السائق :

ـ إنها ركبة سلطانى !!

وقال زين العابدين :

ـ ولكن لماذا الاستمرار فى الإضراب وقد سمح للوفد بالمفاوضة ، وتألفت وزارة رشدى وأوشكت الأمور أن تستقر ؟

وقال الأفندى الذى حادثه أولاً :

ـ لجنة الموظفين لا تزال مضربة وقد وضعت شروطاً للعودة للعمل .. وهكذا استمر الإضراب .

وقال آخر :

ـ الإضراب مستمر وإن كانوا قد أخذوا يجمعون الاكتتاب للوفد .

ـ أعانهم اللّه .. لابد أن ينجح الوفد فى مهمته .

واستمر الحديث بين الراكبين حتى بلغ زين العابدين الصاغة فنزل ، واختار سوارًا من الذهب الثقيل دفع فيه عشرين جنيهاً ، وعاد وقد عرف طريقه فوقف إلى موقف العربات الكارو فركب الدرجة الأولى ، وصعد معه شاب يلبس الملابس البلدية ، وأفندى لا تبدو عليه مظاهر الغنى ، كما ركب

إلى جواره فى الدرجة الأولى وجيه يرتدى ملابس الفقهاء وإن كان يبدو عليه أنه تاجر . وسارت العربة وبدأ الأفندى غير الأنيق حديثه مع الذى يلبس الملابس البلدية :

ـ يا ليتنى كنت أملك أكثر من هذا كنت قدمته .

ـ وماله ؟ كل إنسان يقدم ما يستطيع .. أنا لم أجد شيئاً ولولا زوجتى لظللت حزيناً طول العمر ؟

ـ وما له يا أخي ! ألستما زوجين ؟

ـ نعم ، ولكنها عروس جديدة ولم أحضر لها إلا هذا العقد ..

ـ والله إنها عاقلة .

ـ رأت مقدار ضيقى فقالت لى بعه ، وحين يأتى المال تشترى لى غيره .

ـ هل بعته ؟

ـ لا .. سأقدمه إلى لجنة الاكتتاب ، فإنى أخشى إن بعته أن يبخسوا ثمنه .. أنا اشتريته بعشرة جنيهات ، ومعى عقد شرائه .. سأقدمه هو والعقد إلى اللجنة ، واللجنة ستبيعه بثمنه .

وسمع زين العابدين الحديث فعجب له . وراح يفكر فى هذه القاهرة التى انتفضت هذه الانتفاضة ، فلم يعديسمع شيئاً إنما هو طنين من الدماء الفوارة فى عروقه . إنه البعث .. ووقفت العربة فما درى أين وقفت ، ونزل الأفندى والشاب فوجد زين العابدين نفسه ينزل معهما وسارا فسار خلفهما ودخلا بيتا وقدم كل منهما اكتتابه ، وأخذ كل منهما إيصالا وانصرفا ، وتقدم هو فقدم السوار الذى اشتراه ومعه العقد الذى يثبت ثمنه ، وسأله الذى يتولى جمع الاكتتاب :

ـ اسم حضرتك ؟

ودون وعى قال :

- أنيسة ولعة .

وقال الرجل مدهوشاً :

- ماذا ؟

وانتبه زين العابدين ليقول :

- اكتب الإيصال باسم أنيسة ولعة ..

وحين التقيا قدم لها الإيصال فنظرت إليه نظرة عميقة ، واحتضنته وهى تقول :

- هذه أعظم هدية نلتها ، بل أظنها أعظم هدية سأنالها فى حياتى .. لقد جعلت منى إنسانة لها وطن وعليها واجب نحوه .. أطال اللّه عمرك .

(٥)

كانت الحاجة بمبة جالسة فى بهو بيتها تنتظر الحاج والى أن يعود ، فهى تريده فى أمر قد يدهش له ، ولكنها تراه عدلا ولابد أن تقوم به .

وكان يجلس إلى جانبها طفل فى الخامسة من عمره دقيق القسمات دقيق الجسم أسمر البشرة رغم المجهود الكبير الذى بذلته يد رحيمة لتزيل عنها قدر أيام إن لم يكن قدر شهور طويلة ، وكان يرتدى جلبابا من القماش الرخيص وإن كان يبدو هو الآخر أنه انفلت من النظافة منذ لحظات .

وكان الطفل جالسا ذاهل النظرات فى عينه اليسرى دمعة منسابة لا يدرى لانسيابها سببا ، وإنما هى تلازم عينيه كلما أزالها عادت تنسكب فى إلحاح وإصرار . ولكن عينه تزجى مع الدمعة إشعاعا من الذكاء لا يخفى ، وقد حاول الطفل فى عزم ألا يبدو منه إلا الهدوء والطاعة فقد كان جديداً على هذا المنزل ، جديداً على هذه النظافة التى تواكبت عليه فجأة ، فكان

مجالها جسمه وملبسه فى آن معا . فهو واجف صامت فى نظرته انتظار لمجهول ودهشة بادية على محياه جميعاً . وقد حاولت الحاجة بمبة أن تطمئن وحشته وتؤنس غربته ، فيلجأ الطفل فيها إلى هذه الطيبة لجوء اللاهف الغريب ، يستشف الحنان ويتلمس اليد الرحيمة أو الكلمة العطوف . لا يبحث عن مصادرها ولا يهتم ببواعثها ، وينشغل الطفل حينا من الزمن ببعوضة تلح على يده فينظر إليها طويلا وهى مستقرة لا تبارح مكانها ويحرص الطفل ألا يحرك يده وكأنما يحاذر أن يقلق البعوضة فتلدغه . ولكن البعوضة لا تقابل عطفه بغير عضة فى يده فتختلج يده خلجة مذعورة داهشة تطيح بالحشرة بعيداً . ولكنها ما تلبث أن تعود إلى يده الأخرى فيتكرر ما حدث من الطفل والبعوضة ، وتجلو البعوضة عنه فيبحث عن شىء آخر يشغله فلا يجد إلا نور المصباح المتراقص لا يقر له قرار.

وما تلبث صالحة أن تدخل إلى البهو من حجرتها يتقدمها حنينها ولسانها ، وهو لا يكف عن الدعاء للحاجة بطول العمر والهناء والسعادة ، والحاجة تتقبل هذا الدعاء فى تواضع وتهوين من شأن المعروف الذى تلهج بذكره صالحة . وتحاول صالحة فى إخلاص أن تتلمس أوامر الحاجة ، فهى تسألها إن كانت تريد شيئاً أى شىء وتجيب الحاجة إنها تريدها أن تستريح وتريح هذا الجنين الذى يرهقه معها الذهاب والمجىء ذارعة به غرفات البيت لا تهدأ ولا تجعله يهدأ ، والطفل يسمع ما بينهما من نقاش لا يدرى من أسبابه شيئاً ، ويهم أن يسأل علام الشكر ، ثم تمسك بلسانه وحشة الغريب فيبتلع استفساره مع أحاديث كثيرة تتوارد على ذهنه ، ما إن تبدو على صفحة عقله حتى يقمعها فتعود مختفية متراجعة إلى واد من النسيان ، حيث لا يعلم الطفل ولا يعلم أحد أين تذهب .

ويأتى الحاج من الخارج ويرى الطفل فيدهش لحظة ، ثم يقول فى ترحيب طيب :

- أهلاً حسين .. مساء الخير يا حاجة . كيف حالك يا صالحة ؟

وتجيب الزوجتان التحية ، ويتقدم حسين إلى الحاج والى فيقبل يده ، ويقعد الحاج على الأريكة بجانب بمبة ، وتقوم صالحة وهى تقول :

- تعال يا حسين .

ويتبع حسين أمه إلى حجرتها ، وتقول الحاجة :

- لى طلب عندك .

- طلبك أمر يا حاجة .

- أريد أن يقيم حسين معنا .

- ماذا ... وأنت التى تطلبين ؟

- ومن يطلب هذا إذا لم أطلب أنا .. إن زوجتك صالحة على وشك الوضع ، ولا شك أنك ستربى ابنك أحسن تربية ، وحسين أخوه على كل حال ، وأنا لا أحب أن يكون أحد الأخوين متعلماً والآخر جاهلاً .

- ربنا يعطيك بقدر طيبتك يا حاجة .

- لو أقام حسين عند جده لما استطاع أن يعلمه ، وليس بكثير عليك أن تربى ابن زوجتك كأنه ابنك ، فهو يتيم ويستحق العطف .

- يا حاجة أنت طيبة وصالحة .

- ماذا قلت ؟

- البيت يا حاجة بيتك ، لك أن تقبلى فيه من تشائين وتخرجى منه من تشائين .. وقد كان الأجدر بى أن أطلب أنا هذا الطلب إكراما لصالحة .. إنما أنت دائماً تسبقين إلى الخير ..

(٦)

كانت الريح عاصفة يشتد عصفها كل حين ، بدأت أول ما بدأت بذرات الرماد تحملها ، ثم قويت فأصبحت تحمل الأوراق الجافة المتساقطة على الأرض ، ثم راحت تخلع عن الأشجار الكافور أوراقها ، ثم اشتد ساعدها فإذا هي تحطم أعراف الشجر لا تفرق بين الكافور أو غيره من الأشجار . وراحت تحمل الأعراف فى سرعة مجنونة تندفع إلى حيث لا تدرى مقصدا .

رياح عمياء مجنونة معربدة ليس فيها من الثبات إلا أنها تندفع إلى هدف واحد وإن كانت لا تدركه ، ولا تدرى لماذا اختارت هدفها هذا وهى مع ذلك تتردد أحياناً فى الاندفاع إلى متجهها ، فهى تدور حول نفسها بما تحمله فى دوامة عنيفة من الهواء والرماد وأعراف الشجر ولكن قليلاً ما يدور ترددها ، ثم هى تمضى فى سبيلها لا تلوى على شىء ، ريح قل أن تعرفها مصر . وسارع المطر ينهمر فهو السيل الجارف ينسكب أنهاراً من السماء ، فهو أنهار فى الأرض فياضة تحتفر المجرى فى إصرار وإلحاح . وكأنما أرادت السماء أن تنير الطريق للأنهار الناشئة الصغيرة فالبرق يخطف الأبصار إن وجدت فى العراء أبصار ، فالناس فى بيوتهم يعتصمون من اليوم الراعد والسيول والأعاصير بالجدران الصماء والضلف المغلقة من النوافذ ، ويستعينون فى القرية بالمواقد والأفران على البرد الزمهرير القارس .

أما الحاج والى وأهل بيته فهم فى شأن غير شأن الناس ، فقد كانت صالحة تعانى آلام الوضع تقف إلى جانبها قابلة القرية الحاجة زينب أم عوضين ، والحاجة بمبة تعين بكل خبراتها التى تلقتها من المواقف المماثلة مع الصديقات أو قريباتها . بينما انتبذ حسين مكاناً قصياً يحاذر أن يعرقل الأرجل المتسارعة غدوا ورواحاً بين جنبات البيت تنسكب من عينه تلك الدمعة التى لا تفارقها والتى تعود إلى الانسكاب كلما أزالها حسين بيده . أما الحاج والى فقد جلس

إلى الأريكة ممسكا بمسبحته يتمتم عليها بذكر اللّه ، محاولا ما وسعه الجهد أن يبدو في هدوء الرجل وإن كانت طبيعة الإنسان تأبى عليه الهدوء أو القرار .

وخرجت القابلة فطلبت تبنا . وذهل الحاج والى ولكنه لم يسأل عما يدعوها إلى طلب التبن ، وإنما قام وصحب حسينا إلى المتبن فملأ قفة وعاد هو وحسين يحملانها ويحملان على ملابسهما كميات كبيرة من ماء المطر ، وفى أقدامهما ألواحاً كاملة من الطين فقد كان لابد لهما أن يخرجا إلى العراء ليصلا إلى المتبن .

وعاد الحاج والى إلى أريكته وحسين إلى مكانه القصى ، وعادت المسبحة إلى أصابع الحاج والدمعة إلى عين حسين .

ولكن آلام صالحة لا تنقطع تتنفسها فى آهات ينشق عنها كيانها كله ، والغرفة ذات الباب المقفل صماء لا تفلت أحدا من داخلها ليخبر الحاج والى ماذا يحدث فى الداخل ، وأخيرا انشق الباب على القابلة وهى تقول :

ـ لابد من طبيب يا حاج .. أنا لا أستطيع أن أقوم بولادتها وحدى ..

وقال الحاج والى :

ـ طبيب ؟ .. تقولين طبيب ؟

وخرجت الحاجة بمبة وهى تصيح :

ـ نعم يا حاج .. طبيب .. أم نترك البنية تموت ؟

ـ ومن أين آتي بالطبيب الآن ؟ كيف لى به ؟

ـ اطلبه من تليفون العمدة .. اطلبه يحضر بأية وسيلة .

وقام الحاج والى يريد أن يخرج ، وحينئذ تقدم حسين وهو يقول فى صوت واهن حازم :

ـ أنا قادم معك يا أبا الحاج .

ويقول الحاج فى صوت طيب ولكنه حازم أيضاً :

ـ لا .. ابق أنت هنا يا حسين .

ويخرج الحاج إلى الطريق يشق سبيله فى الرياح العاصفة يكاد لا يبصر ما أمامه من شدة الرياح وانسياب الماء حتى يصل آخر الأمر إلى بيت زين العابدين ، ولا يعرج على البيت وإنما يقصد إلى دار سائق العربة محمود أبو عبد الهادى فيطلب إليه أن يجهز العربة ليذهب إلى المركز ، ويوشك محمود أن يقول إن الخيل لا تستطيع المشى فى هذه الأنواء العاصفة ، ولكنه يرى لهفة الرجل ويقدر أيضاً ما سيناله من عطاء فيطيع ، ويركب الحاج العربة وتأخذ سبيلها إلى المركز ، ولكنها على رغم قوة الخيل تمشى بطيئة متمايلة تغرس عجلاتها فى الطين كلما سارت . وحين عادت العربة بالطبيب كان الفجر قد أوشك أن يرسل نوره ، وكانت السماء قد أقلعت عن المطر وكانت الريح تبدو وكأنها مسها الكبر ولكنها مع ذلك تأبى أن تعترف بالوهن فهى تجر الأشياء التى كانت تحملها فى صدر النهار بخفة واستهزاء ، ولكن البرد كان لا يزال شديداً قارسا .

ودخل الحاج والى والطبيب إلى البيت ونادى الحاج والى :

ـ يا حاجة بمبة .

وخرجت إليهما الحاجة وما لبثت أن قالت :

ـ الحقنا يا دكتور .. تفضل .

ودخل الطبيب ودخل معه الحاج والى ، وكانت صالحة تلقف أنفاسها فى ضعف وإصرار ، وكأنما هى تنتزع الهواء من الحياة انتزاعاً . ومرت بذهن الحاجة بمبة خاطرة عجبت لها فى هذا الموقف الضنك ، لقد رفضت أن يراها طبيب رجل وخطبت لزوجها هذه الفتاة لتلد له ، ولكن اللّه أراد ـ لحكمة لا يعلمها إلا هو ـ ألا يأتى الولد ـ إن هو جاء ـ إلا على يد طبيب رجل ، وصحت الحاجة من خاطرتها على صوت الطبيب :

- اتركونا أرجوكم .. لا أريد إلا القابلة .. أيصح يا حاجة زينب أن تستعملى التبن ؟! كم مرة أنهاك عن هذه القذارة .. أرأيت نتيجة عملك .. اتركونا أرجوكم .

وخرج الحاج والى وخرجت من ورائه الحاجة . واقتعدا الأريكة ولم يخرج الحاج مسبحته وإنما راح يسأل الحاجة بمبة فى إشفاق :

- هل الحالة خطيرة ؟

- ربنا يسلم يا حاج .. أنا لم أر فى حياتى ولادة كهذه .

وأراد أن يعيد السؤال فوجد أنه سيصبح سخيفاً كما وجد أنه لن يسمع الجواب الذى يتلمسه ، فلم يجد مناصا من أن يعود إلى مسبحته ، فهو يخرجها ويأخذ فى إسقاط حباتها الواحدة بعد الأخرى فى محاولة فاشلة للهدوء أو الاطمئنان ، وحسين ينظر إلى الحاج والحاجة بمبة والدمعة فى عينه ، وشعور بالخطر يملأ جوانحه وإن كان لا يدرى ما وجه الخطر أو أسبابه .

وطال غياب الطبيب وطال ، وباب الحجرة مقفل لا يند عنه إنسان يعرف منه الحاج ما يجرى داخل الغرفة .

وأطل الصباح فى تباشيره الأولى وتهيأ الحاج للصلاة ، ولكن الصوت الخالد الذى يستقبل به الأطفال الحياة ند عن الغرفة المقفلة بكاء . وتوقف الحاج باهتا وراح ينظر إلى الغرفة ، ولكن بابها ظل صامتاً إلا عن البكاء . ولم يطق الحاج صبراً فاندفع إلى الباب وفتحه وقبل أن يقتحم الحجرة واجهه الطبيب مرتبكاً لا يدرى ما يقول وعاجله الحاج والى :

- هيه .. خير يا دكتور ؟

وصمت الطبيب وقالت القابلة :

- أصبح لك ولد يا حاج .

وقال الحاج :

ـ وهى .. صالحة .. كيف هى ؟

واستحذت القابلة حسيرة وألقت بنظرها إلى الأرض ، وقال الطبيب :

ـ تعيش أنت يا حاج .

وذهل الحاج وأقدم على سرير زوجته ثم أحجم ، وترك الغرفة ثائر النفس ممزق المشاعر بين أمل تحقق وروح أزهقت في سبيل تحقيقه ، لا يدرى ماذا يفعل إلا أنه دون وعى استقبل القبلة وكبر وانتوى الصلاة ودمعات تموج فى عينيه وقرأ الفاتحة ثم وجد نفسه يتلو الآية الكريمة :

بسم اللّه الرحمن الرحيم « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء . بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار . وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » . صدق اللّه العظيم .

(٧)

كان لابد لزين العابدين أن يعود إلى القرية بعد أن أقام أكثر من شهرين في القاهرة ، فصحب زوجته وعادا . وهناك علم بما ألم بالشيخ والى من فقد زوجته وإنجابه .. فما استراح من السفر وإنما ذهب إليه ، واستقبله الشيخ في وجه جامد فيه من الحزن أكثر مما فيه من الراحة ، ولم يكن زين العابدين يدرى هل الأجدر به أن يهنئ الشيخ والى بمولوده الجديد ؟ أم يعزيه على فقد زوجته ؟ ولم تطل به الحيرة فقد اختار آخر الأمر أن يجرى الحديث في مجال آخر بعيد كل البعد عن التهنئة أو التعزية ، وإن كان هذان المعنيان يملآن رأسه ويختلطان في وقت معا بأفكاره ، فهو عاجب كيف يختلط أمران متنافران كل التنافر في وقت واحد بتفكيره ! كيف يأتي عليه حين من الزمن لا يدرى أيهما الأجدر به .. تهنئة ؟ أم تعزية ؟ كيف تداعب الأقدار حياة الناس إلى هذا الحد فتجعلها خليطاً من الفرح والحزن ، ومزاجا من الهناء والأسى ! ولم تشغله حيرته هذه عن أن يروى على الحاج والى ما شهده في القاهرة من آثار الثورة ، والحاج والى يشارك في الحديث متعجباً قد أخذته الأنباء عما يعانيه من مشاعر مختلطة .. ولكنه في أعماقه لا يزال يعانى آلاما حادة مما لقيه في سبيل تحقيق آماله ، حتى كاد يستقر في نفسه في يوم ما أنه هو المسؤول عما عانته زوجته من آلام . ولولا الحاجة بمبة وما أخذت تروضه به من حديث لأصابه التلف وعجز عن مواجهة الحياة .. ليس ينسى كيف احتضنت الوليد . وراحت ترعاه رعاية أم ، بل ليس ينسى كيف أبت أن تترك جد حسين وجدته يأخذانه ، وكيف بعثت إلى نفسه الرضا والطمأنينة.. إنه حين يقوم بشأن حسين سيرضى روح هذه التي ضحت بحياتها وهى تهب له أعز أمنية تمناها في حياته .. وليس ينسى كيف راحت تقول لسيدة أم عسل وزوجها محمدين أن حسينا سيكون لها بمنزلة الابن وهى التى لا ولد

لها.. ليس ينسى الحاج والى شيئاً من هذا . وكيف له أن ينسى أنه بهذه اليد الكريمة التى تولته بها الحاجة بمبة استطاع أن يعود إلى الحياة ؟ واستطاع أن ينظر إلى طفله الوليد وقد كان يرى فيه جريمة ارتكبها ليس لها من غفران ، وكان يتصور نفسه أزهق روحا بشرية ليحقق أمله هذا ! استطاع ويد الحاجة بمبة تمسح نفسه الهالعة أن ينظر إلى ابنه محمد ، وأن يحمله ويهدهده .. بل استطاع أن يفرح به . واستطاع أن يعود إلى الناس وأن يجلس هذه الجلسة التى يجلسها إلى زين العابدين فيسمع منه ويجيب ، فلا يذهل عن حديث يلقى إليه إلا لحظات قلائل ثم يعود إلى ما كان فيه من حديث .

وألقى زين العابدين حمله فأفرغ كل ما كان فى جعبته من حديث . وكان لابد للحديث أن ينتهى ، وانتهى وسكت زين العابدين وظل رانيا إلى الحاج والى تواجهه فيه حيرته مرة أخرى . أيعزيه أم يهنئه ولم يكن زين العابدين مداوراً فالتقى بحيرته فى خط مستقيم .

ـ حاج والى .. أنا حائر فيما أقوله لك .. ؟!

ـ وأنا واللّه يا بك حائر فيما وقع لى .

ـ أأعزيك أم أهنئك ؟!

ـ أنا أيضاً لا أدرى يا زين العابدين بك ..

ـ أنت تعرف أنى حزنت لك ، وفرحت لك أيضاً !

ـ أعرف .

ـ ثم سعدت بما سمعته عن بقاء حسين عندك ..

ـ أتتصور أن الحاجة هى التى ألحت فى إبقائه ؟!

ـ الست التى تخطب لزوجها لا يستغرب عليها شىء !

ـ إنها ست صالحة يا زين العابدين بك ..

ـ إنها من أعظم نعم ربنا عليك يا حاج ..

ـ وماذا فعلت مع الدكتور نجيب محفوظ ؟!

ـ كل خير .

ـ ماذا ؟ أصحيح ما تقول ؟!

ـ واللّه إلى الآن لسنا متأكدين ، ولكن الغالب أن يكون اللّه قد جبر خاطرنا ..

ـ إن شاء اللّه يا سعادة البك .. إن شاء اللّه .. أرأيت ، ألم أقل لك قبل سفرك إن أحداً لا يعلم الغيب إلا اللّه ؟ .. أرأيت ، ألم أكن محقاً ؟ والآن ألا ترى معى أن تضم يدك بعض الشيء .. لقد أصبحت مسؤولاً الآن ..

ـ أجعلتنى مسئولا من الآن يا حاج والى ، ونحن لم نتأكد بعد : هل هناك حمل أم لا ؟

ـ يا زين العابدين بك أنت أكثرت من البيع .. كم فداناً بقيت لك ؟

ـ سبعون ..

ـ لا أظنها تكفى مصروفاتك .. أرجوك كف عن البيع .

ـ واللّه يا حاج والى إن كانت زوجتى حاملاً حقاً ، فإننى أعاهدك أننى لن أبيع بعد ذلك أبداً إلا ..

ـ إلا ماذا يا سعادة البك ؟ ..

ـ إلا لأسدد الدين .. ثمن خمسة أفدنة أو ستة .

ـ أنا أسدد الدين وأشترى الأرض ، ولا تبع بعد ذلك .

ـ هو ما تقول .. إن حقق للّه الآمال ، فلن يكون إلا هذا .

ـ على بركة اللّه .

ـ على بركة اللّه .. وحسين هل يذهب إلى الكتاب ؟

ـ واللّه يا سعادة البك إننى أخاف أن أحسد هذا الولد ، ذكى جداً ويحفظ بسرعة ، وسيدنا يمدحه دائماً ..

ـ أنت رجل طيب يا حاج . قالت الحاجة إنك ستعلم ابنك ، ولا يصح أن يكون أخوه غير متعلم .

ـ إن جئت للحق يا زين العابدين بك أنا منذ حادثة الإنجليز معى وأنا أتمنى أن أعلم أبناء مصر جميعاً ، وقد أرضانى الله فجعل لى بدل الولد ولدين ..

ـ قواك الله ..

ـ إلا أن حسينا لا يجعلنى أهتم بشىء له أبداً ، إنه حريص على ألا يشغلنى بنفسه أبداً .

ـ طبعاً شعوره بأنك تتفضل عليه .

ـ إنه يفضى بدخائله للحاجة وهى تعامله وكأنها ولدته .

وقبل أن يكمل جملته مر حسين بباب الغرفة فاستدعاه الحاج والى .

ـ يا حسين .. تعال .

ودخل الطفل إلى الحجرة فى أدب هادئ وديع والدمعة لا تزال منسابة من عينه ، وأمره الحاج والى أن يسلم على زين العابدين فسلم ، ثم مسح دمعته بيده وانتظر لحظة فسأله زين العابدين :

ـ إلى أين بلغت فى القرآن ؟ ..

ـ إلى أول جزء عم .

ـ اجلس واتل علينا شيئاً مما تحفظ .

ولم يتوان حسين فاتخذ مجلسه على الأريكة ، وخلع نعليه وفى صوت طيب راح يقرأ فى خشوع .

(٨)

أشرقت الفرحة على بيت زين العابدين إشراقة لم يكن البيت يتوقعها ، بل كان سيد البيت أبعد الناس عن التفكير فى أن أمله هذا قد يوافيه التحقيق . ومن أين ؟ وقد مرت بزواجه السنوات الطوال ومحاولات زوجته لا تقف على طول هذه السنوات . وما كانت إطاعته لها فى الذهاب إلى الطبيب إلا إذعانا يائسا ، فما كان يجب أن يتعلق أملها بشىء ويقصيها عنه . ومن حيث لا يحتسب أشرق الأمل وتحقق وأنجبت زوجته له ابنة .. نعم ابنة .. وما غض من فرحته أن الوليد بنت وليست ولدا . إنما أحس الفرحة كاملة لا ينتقص منها شىء حين حمل الفتاة وأحس خفق قلبها بين يديه وسمع صراخها العريض ، أحس أن اللّه قد وهب له حياة ثانية يمسكها بين يديه . بل إنه أحس أنه يمسك الحياة كل الحياة بين يديه . وحين سرى هذا المعنى فى كيانه وأحس به فى أعماقه ليتملكه جميعاً ، أحس دموعاً عجيبة تطفر إلى عينيه كأنها فيض فرحة لم يتسع جسمه الصغير على ضخامته أن يتسع لها .. وأقسم بينه وبين نفسه أن يهيىء لهذه الفتاة من غدها خيراً ، وأقسم بينه وبين نفسه أن يكبح جماح شهواته حتى يبقى من المال ما يرد الحاجة عن هذه الطفلة الصغيرة التى لا تزال تسعى فى الهواء على أربع نحو مستقبل جديد . وكالعابد قد أتم طقوسه أعاد زين العابدين الوليدة إلى أمها ، ثم قبل الأم وقبل الوليدة وخرج من الحجرة ، ثم خرج من البيت ونظر حواليه ، ونظر إلى السماء ودارت عيناه ودارتا ، فوجد الطيور على أعراف الشجر مستقرة الجلسة مطمئنة هادئة كشأنها دائماً كلما اتخذت من أعراف أشجاره مكاناً لها . وفى هذه المرة لم يعجب للطيور مقيمة على أشجاره على رغم الأجنحة التى تتمتع بها،

بل عجب من نفسه كيف كان يريدها أن تظل سابحة فى السماء لا تراح إلى عش مطمئنة ، ولا تستقر إلى بيت آمن كأشجاره هذه ، وأنعم زين العابدين النظر فيما تخفيه أعراف الشجر عن العيون ، حتى إذا رأى عشين متواريين بالأوراق انشرح صدره ، وأحس بالسرور والفرح والاطمئنان يشيع فى نفسه جميعاً .

أما فرحة بهية هانم بابنتها ، فقد كانت توشك أن تصبح جنوناً يحتاج إلى من يكبح جماحه . وهي معذورة فلم يكن إنجاب هذه البنية مجرد أنها أصبحت أما وما هذا فى ذاته بقليل ، إنما هى هذه البنية الصغيرة ترد كيد الكائدات من أهل زوجها اللواتى كن يدعين أنها عاقر لن ترى لنفسها أطفالاً أبد الدهر.. وكن يسرفن في الكيد فيغرين زوجها أن يتخذ لنفسه زوجاً أخرى ، وأن إنجابها أيضاً إنقاذ لها من هذا الفراغ الذى كانت تعانيه فى أيامها الطوال بالقرية . لقد أصبحت أماً .. أصبحت تؤدى الوظيفة الكبرى فى الحياة .. إنها تشارك الحياة فى تكوين الناس ، إنها .. هى نفسها أصبحت حياة وتمد بالحياة روحاً أخرى ، روحاً تحيا وتنبض ولها قلب يخفق وعقل سيفكر ويدان ورجلان ، إنها أم .. أم .. قد لا تعنى هذه الكلمة شيئاً لسيدات كثيرات أما لها هى .. هى التى سعت إلى هذه الأمومة بكل دقة من دقات قلبها على مدى السنوات الطوال التى تزوجت فيها ، وهى هى التى لم تترك سبيلاً إلى هذه الأمومة إلا سلكته .. أما لها .. لها هى . فكلمة أم القصيرة الحاسمة هذه تعنى لها كل شيء ، لم تعد تريد من الحياة شيئاً آخر .. لا .. لا تريد ولداً ، لا تريد إلا أن يطيل اللّه عمر ابنتها هذه فإنها هى التى منحتها هذا اللقب ، وقد كانت تقول ويا طالما قالت : إنها على استعداد أن تتنازل عن إحدى عينيها لتنال هذا اللقب . وقد كانت جادة فيما تقول ولا أحد يدرى هل كان مصدر الجد فيما تقول أن أحداً لن يطلب منها عينا ليعطيها وليداً أم لا ، ولكنها

كانت جادة على أية حال ، فكيف بها وقد جاءها الوليد دون أن تتنازل عن عينها ؟ ألا إنها لا تريد من هذه الحياة إلا أن تبقى عليها لقبها : « أم » دون زيادة . شكر للّه ، شكرًا للّه . وفى غمرة فرحتها أمرت أن يُشترى خروف وثلاثة من الديكة الرومية ، وخمسة أزواج من الفراخ وعشرة أزواج من الحمام، وأن ترسل جميعها إلى الدكتور نجيب محفوظ بالقاهرة . ولا يعنيها ما يصنعه الدكتور بهذه الهدية .. ولا كيف سيحافظ عليها ، إنما كل ما يعنيها أن ترسل إليه هذا الشكر ممثلا فى هذه الحيوانات ، وقد ظلت تقول فى نفسها : « لو استطعت أن أرسل له الدنيا جميعاً لأرسلتها وظللت مقصرة » .

(٩)

أتم حسين تعليمه فى الكتاب وختم القرآن حفظاً ، وقد كان يحب أن يترنم بما حفظ ، وكان يحلو للحاج والى أن يطلب إليه من حين إلى آخر أن يرتل بعض أجزاء القرآن فكان الفتى يسارع إلى الطاعة ، سعيداً غاية السعادة أنه يستطيع أن يلبى طلباً لهذا الرجل . وكان فى قراءته خاشعاً تدمع عيناه معاً فى صمت وروحانية ، كانت هذه الجلسات التى يجلس فيها حسين مرتلا القرآن فى غير تجويد أمام الحاج والى هى أجمل لحظات حياته ، كان يحس أنه يستطيع أن يكون مفيداً وأنه يستطيع أن يمتع هذا الرجل الذى يعوله فى غير ضيق به ، بل إنه يوسع أمامه آفاق المستقبل فى إقبالة أب وفرحة كريم . وكانت السن قد تقدمت بحسين فأصبح يعرف تمام المعرفة موقفه من الحاج والى ، وأصبح يشكر هذا الموقف فى نفسه أعمق الشكر وأصدقه فهو دائماً حائر بهذا الشكر .

ماذا بيدى أن أفعل لرد فضل هذا الرجل ، وماذا بيدى أن أفعل لأرد فضل الحاجّة ؟ ماذا فعلت لأنال هذا الحنان منهما ؟ سيد أبو عبد الكريم يعيس مع أمه وأبيه فهما يضربانه في كل يوم ليترك الكتاب ويذهب إلى الغيط . إلى أى مصير كنت ألقى لو أننى عشت مع جدتى وجدى ، فلاح يصبح بالطعام لجده ، ويمسى بالماشية يعود بها إلى البيت .

وأنظر إلى نفسى الآن ، فتى يحيط به الاحترام إن مشى فهو لا يمشى فرداً إنما يحمل كلام اللّه ، ولكن أأحمل كلام اللّه ولا أفهم معناه ، ألا أفهم معناه أنا ؟ هيه .. أأخادع نفسى أيضاً ؟ لأذهبنَّ من فورى إلى الحاج سالم فخر الدين فآخذ عليه التفسير ، فقد درسه في الأزهر الشريف . وليس فى البلد من يفقهنى فيه مثلما يستطيع هو أن يفعل . ولكن أتطول بى هذه الدراسة ؟ ومالى لا أذهب مباشرة إلى الأزهر الشريف ؟ لقد ختمت القرآن . أتراى أريد الذهاب إلى الأزهر لأخفف المؤونة عن كاهل الرجل الطيب أم أننى أزين لنفسى أننى عفيف وأنا أتحرق شوقاً للذهاب إلى الأزهر لألبس العمامة والجبة والقفطان . وأروح فى البلد وأغدو فلا واللّه ما الشيخ سالم ببالغ ما أبلغه من الفخامة والمهابة . والبنت هنية أم عبدالحميد التى لم ترض أن تلعب معى لتأتين صاغرة تقبل يدى وطرف جبتى ، فأى مكانة فى العالم أرفع من مكانتى؟ لتكونن الجبة الخضراء فاقعاً لونها يسر الناظرين ، وليكونن القفطان زيتونياً .. أيشترى لى الحاج والى ما أطلب ؟ أيقبل أولاً أن أذهب إلى الأزهر؟.. سأذهب فإن حبى للحاج والى لن يجعلنى أغير مستقبلى كله من أجله . إننى على أتم استعداد أن أقدم له حياتى ، أما مستقبلى فهو لى وحدى مادام لا يريد حياتى . مادمت سأعيش فأنا الذى سأصنع مستقبلى بيدى ولن يصنعه لى أحد . أراه منذ اليوم يتكلم عنى أنى سأصير محامياً ، وعن محمد أنه سيصير طبيباً ، ومحمد لا يزال فى الخامسة يتلقى أول دروس الكتاب ولكن

الحاج يرسم المستقبل لكلينا .. لن يكون هذا . لا .. لن يكون . ألا يقولون إن الثورة قد نشبت فى مصر من أجل الحرية .. ما الحرية إن لم تكن حريتى فى اختيار طريق حياتى ، وطريق حياتى هو الأزهر ، فإنى أحب أن أسير لابساً الجبة الخضراء والقفطان الزيتونى اللون ويقبّل الرجال والنساء.. نعم وخاصة النساء وعلى رأسهن هنية يقبلون يدى ، وأرى نفسى عظيماً فى القرية يحيط بى التوقير والاحترام من كل جانب .. بل إنى أرى المشايخ فى البلد أيضاً يحيط بهم ..

وصحا حسين من خواطره وأحلامه على صدمة عنيفة من حمار يحمل حملاً عالياً من البرسيم ويسير خلفه طفل صغير لا يستطيع أن يرى الطريق ، فالطفل قصير ، وحمل البرسيم مرتفع شاهق فى الهواء . وأغاظ حسين وهو يرى نفسه مصدوماً من حمار ، ولم يستطع أن يكتم غيظه فما أسرع ما دار حول الحمار وأمسك بالطفل :

ـ ولد .. أأنت الحمار أم هو ؟

ـ دعنى .. اترك ملابسى .

ـ أتترك الحمار يقودك يا ابن الحمار .

ـ لا شأن لك بى .

ـ كيف ؟ أتترك حمارك يصدم خلق الله وتقول لا شأن لك بى .. طيب والله لأذهب بك إلى أبيك . ابن من أنت ؟

ـ دعنى .. اترك ملابسى .. لا شأن لك بى .

وتجمع حول حسين والطفل نفر من القرية وراحوا ينحون على حسين باللوم حيناً أو قد ينحو بعضهم باللوم على الطفل ، وفجأة تقدم إلى ميدان المعركة رجل طويل القامة عريض الكتفين وأمسك بتلابيب حسين .

ـ ماذا يا ابن شحاته .. ألم تجد إلا ابنى لتهينه ؟

ـ لقد ترك الحمار يصدمنى .

ـ وماله يا أخى .. أما عجيبة .. ألم يبق إلا أنت يا من تعيش عالة حتى تتعدى على طفل صغير ؟

وألجمت الكلمة حسين فأطال النظر إلى الرجل ، ولم يستطع أن يمنع عينه الأخرى أن ترسل دمعة ، ثم ألقى برأسه إلى الأرض وأولى الجمع ظهره ومشى . وصمت الرجل العريض المنكبين كقاتل أدرك بشاعة جريمته بعد أن ارتكبها ، ونظر حواليه فرأى فى عيون الناس جريمته مجسمة فى نظرات آلمة . فما استطاع مكثا وخف خطاه وراء حسين :

ـ يا حسين .. يا حسين .

ولم يقف حسين فعاد الرجل ينادى :

ـ يا شيخ حسين .

وأحس حسين حلاوة كلمة « شيخ » فتلكأ هونا وأدركه الرجل :

ـ أزعلت منى ؟

وصمت حسين .

ـ حقك على ... هات رأسك لأبوسها .

ولم يدر حسين من أمر نفسه إلا أن دمعاته الصامتة أصبحت نشيجاً عالياً ، وواصل الرجل كلامه :

ـ إن اللّه غفور رحيم يا شيخ حسين .. يا رجل أنت حامل كلام اللّه فاغفر لى .

وربت كتفه ثم احتواه فى حضنه الواسع ، وتجمع الناس الذين شهدوا موقفهما الأول وراحوا يجاملون حسين ، ويرجونه ألا يحمل على الرجل غلطة لسانه ، وتهافت النشيج من حسين واقترب من الصمت وقال الرجل العريض الكتفين :

ـ لا تذكر ما قلته للحاج والى ، فإنه لو عرف ما قلت لن يعفينى من الزجر والتأنيب .. اصفح عنى يا شيخ حسين . وأقسم باللّه لا أعود لها أبداً ..

ثم نادى بأعلى صوته على الطفل الذى كان يسير خلف الحمار فجاء فقال له :

ـ قبّل يد الشيخ حسين يا ولد واعتذر له .

وقال الطفل :

ـ يا آبا أنا لم أره .

وزجره أبوه فى عنف :

ـ قبّل يده قلت لك .

وتكلم حسين أخيراً مغمغماً :

ـ أستغفر اللّه .. لا لزوم لهذا .

وقال الرجل :

ـ اجعله يقبل يدك لينال بركتك .. أنت حامل كتاب اللّه ومبروك .. اجعله يقبل يدك من أجل خاطرى .. أعطه يدك حتى أعرف أنك صفحت عنى .

وأمسك الطفل يد حسين فقبلها فى سرعة قبل أن ينتبه حسين ، وأحس حسين رضا فى نفسه وقال :

ـ أستغفر اللّه العظيم ، يا سيدى أنا متشكر على كل حال .. سلام عليكم .

ورد الجميع السلام فى همهمات وانصرف حسين وقد أصبحت رغبته فى أن يصبح شيخاً أعمق فى نفسه وأبعد غورا .

لم يذهب حسين إلى الحاج والى وإنما قصد إلى الحاج سالم فخر الدين ، وهو رجل قطع من مراحل التعليم فى الأزهر شوطاً ليس بالبعيد ، وإنما كان

كل ما تعلمه كافياً لأن يجعل منه مفتى القرية ، فإليه يقصد الناس ليفسر لهم ما غمض عليهم من شؤون دنياهم ودينهم ، وقد كانت الدنيا عندهم تختلط بالدين فى أغلب الأمور ، وقد كان الحاج سالم ذكياً يفصل فى الأمور بحدة ذكائه أكثر مما يفصل فيها بعلمه ، وكان جميل السمت ذا لحية مهيبة وضاح الجبين ، تتوسط جبهته تلك العلامة السمراء التى تختلف سمرتها بين الدكنة والخفة حسب كثرة صلاة صاحبها أو قلة صلاته .. تلك العلامة التى تأخذ مكانها على جبهة المصلين جميعهم لا تفرق بين الصالح منهم والمرائى ، وكان الحاج سالم إلى جانب مكانته الدينية ذا عمل آخر بالقرية ، فقد كانت الودائع جميعها تأخذ فى طريقها إليه فيحفظها لأصحابها حتى إذا احتاجوا إليها وتلمسوها عنده وجدوها كما أودعوها إياه بربطتها كما يحلو لهم أن يقولوا .

كان الشيخ يجلس منفرداً حين دخل إليه حسين .

ـ السلام عليكم يا عم الحاج .

ـ وعليكم السلام يا ابنى ورحمة اللّه وبركاته . أهلا وسهلاً .

ـ أنا حسين بن شحاته أبو إسماعيل .

ـ أهلاً وسهلاً .. رحم اللّه أباك .. كان رجلاً طيباً .

ـ أريد أن أذهب إلى الأزهر يا عم الشيخ .

وتجهم وجه الشيخ قليلاً ، ثم قال :

ـ وماذا بعد ذهابك إلى الأزهر ؟

ـ وماذا بعد يا عم الشيخ ؟

ـ أى ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ أريد أن أحصل على شهادة العالمية .

ـ العالمية ؟!

وسكت الشيخ قليلاً .؟ إذن فسيأتى له منافس فى القرية . نعم إن أمامه سنوات طوال حتى ينال الشهادة وربما مت أنا فى هذه الفترة ، ولكن ماذا يكون العمل لو أننى عشت .. أيأتى هذا الطفل وقد حصل على الشهادة العالمية وأصبح أنا نسيا منسياً فى هذا البلد ؟

ـ وماذا تنوى أن تفعل إذا أخذت العالمية إن شاء اللّه ؟

ـ أريد .. أريد ..

وسكت فقد أصبح لا يدرى ما يقول . فما كانت آماله وأحلامه بصالحة أن تلقى على مسمعى الشيخ الجليل .. وقال الشيخ :

ـ أتنوى بعدها أن تقيم هنا معنا أم تأخذ طريقك فى القاهرة بعد ذلك ؟

وقال حسين متردداً :

ـ كل ما أريده الآن أن أحصل على العالمية .

ـ يا بنى إنها شهادة صعبة .

ـ أعرف ذلك .

ـ وقد سقط الكثيرون وهم يحاولون الحصول عليها .

ـ أنا أريد أن أفهم كلام اللّه الذى أحفظه ولا أفهمه .

وأطلق الشيخ تنهدة وقال :

ـ هل تصدق أن أحداً قد فهم كلام اللّه كله ؟

ـ لابد أنه مفهوم يا سيدنا ولكننى أنا عاجز عن فهمه .. فأنت مثلا تفسره بكلام مفهوم واضح .. وأنا أريد أن أفهمه كما تفهمه أنت .

ـ يا بنى فهمت شيئاً وغابت عنى أشياء .

ـ لا بأس .. إنما أريد أن أفهمه .

ـ ولماذا ؟

وسكت حسين قليلاً ثم قال :

ـ لماذا أريد أن أفهم كلام اللّه ؟

ـ نعم لماذا ؟

ـ لأعرف دينى .

ـ ألا تعرفه .. الحلال بيّن والحرام بيّن .

ـ نعم ولكنى أريد أن أفهمه جميعه ، أن أدرس دينى على الأساتذة الكبار فى الأزهر .. لأنى .. لأنى ..

ـ لأنك تريد أن تشرحه لغيرك .

ـ نعم .. ولأنى أيضاً ..

وسكت حسين لحظات حتى قال الشيخ :

ـ ولماذا أيضاً ؟

ـ ولأنى أجد حلاوة فى كلام اللّه لاأدرى أسبابها ..

ـ لعلك إذا أصبحت وكلام اللّه حرفتك تفقد هذا الشعور بالحلاوة .

ـ أفقدت أنت هذا الشعور يا مولانا ؟

وبهت الشيخ ، ثم ما لبث أن قال ملهوفاً وكأنه يدفع عن نفسه تهمة كفر وإلحاد :

ـ لا .. لا أبداً .. أستغفر اللّه العظيم .. أستغفر اللّه العظيم .. إنه لا تغنى الدنيا عن الآخرة .. لا .. لا تغنى الدنيا عن الآخرة .. ماذا تريدنى أن أفعل لك يا بنى ؟

ـ أريد منك توصية لأصدقائك هناك .

ـ أكتب لك ما تريد إن شاء اللّه .

ـ بارك اللّه لنا فيك يا عم .

ـ بارك اللّه خطاك يا ابنى .. مع السلامة .

(١٠)

كان حسين جالساً فى بهو البيت إلى أخيه محمد ، وقد راح محمد يتلو السور القصار وحسين يستمع إليه ويصحح خطأه من حين إلى آخر . وكانت الحاجة بمبة تجلس إلى الأريكة التى تحب الجلوس إليها وأمامها معدات القهوة وقد ارتاحت نفسها لمنظر الولدين تكاد تحس أنهما ابناها : نعم هما ابناى .. أما الصغير فأمه لم تره ولم يرها ، وأما الكبير فإنه إن ذكر أمه فكما يذكر حلماً بددته اليقظة . هما ابناى وإن لم ألدهما .. وقد كان الصبى والفتى فى شغل عما تفكر فيه الحاجة .. فأما محمد فمشغول بهذه السور القصار التى إن لم يحفظها انهالت عليه فى صبيحة اليوم التالى عصا الشيخ ، وأما الفتى فبأحلامه التى يريد أن يسلك إليها السبيل ويخشى أن تعوقه عنها رغبة الحاج العنيفة فى أن يعلمه تعليماً مدنياً .. فقد سمعه يقول للحاجة إنه يريده أن يقصد به إلى المدرسة الابتدائية فى المدينة آملا فى أن يقبلوه فى السنة الثالثة، وإلا ففى السنة الثانية . ولم يستطع أن يهاجم الشيخ فى آماله وهو يبنيها له ، فصبر ريثما تلوح فرصة أخرى فيكشف عن خوالج أمله هو التى امتزجت بنفسه فهى تملأ عليه جوانب حياته جميعاً .

وانتهى محمد من حفظ اللوح وخرج إلى رفاق ملعبه . وظل حسين مكانه وتطلع إلى الحاجة يريد أن يقول ولا يقول ، فلا يجد ما يفعله إلا أن يمسح تلك الدمعة التى تلازم عينه ، ورأته الحاجة وهو يزيل دمعته فأحست خالجة عطف نحوه ، ورأت على شفتيه الكلمات وأرادت أن تصمت حتى يبين . ولكنها ما لبثت أن أشفقت عليه فقالت :

ـ هيه يا حسين .. ماذا تريد ؟

واندهش حسين ولكنه انتهز الفرصة فقال :

ـ أريد أن أذهب إلى الأزهر الشريف يا أم الحاجة ..

وقال الحاجة بمبة :

ـ أى نعم يا ابنى .. تذهب إن شاء اللّه .

ـ أخاف أن يرفض أبا الحاج ..

ـ لماذا ؟

ـ أنا أعرف أنه يريدنى أن ..

ودخل الحاج والى قبل أن يكمل حسين جملته ، فصمت حسين وقام يستقبل الحاج ، ورحبت الحاجة بزوجها الذى اتخذ مجلسه على الأريكة .

والتفتت الحاجة إلى حسين ثم نظرت إلى الحاج ، وأحس الحاج أن بين الاثنين حديثاً يريد أن يرقى إلى مسامعه . بل أحس أن الحاجة تريد أن ترجوه فى شأن يهم حسيناً وقد كان يحب أن ترجوه الحاجة فى أمور حسين ، حتى يشعر بالراحة وهو يجيب مطالبها . ولكن الحاج والى تظاهر بأنه لم يفهم شيئاً، فأخرج مسبحته وراح يساقط حباتها مسبحاً فى تمتمة وترقب ..

وقالت الحاجة :

ـ لنا عندك رجاء يا حاج ..

ـ قوليه يا حاجة .

ـ حسين يريد أن يذهب إلى الأزهر .

وجمع الحاج مسبحته فى حركة سريعة وقال :

ـ ماذا ؟

وقالت الحاجة :

ـ ولماذا لا يا حاج ؟

وتجاهل الحاج تساؤلها والتفت إلى حسين :

ـ أهذا ما تريد يا حسين ؟

وأطرق حسين وهو يقول :

ـ إن شئت يا أبا الحاج .

ـ لماذا ؟

ـ أريد أن أتفقه في القرآن ..

ـ أهذا ما تريد حقاً ؟

ـ نعم .

ـ ولكن .. ولكن .

وصمت الحاج وألقى بصره إلى أمامه وراح يفكر .. أيهما أفضل لهذا الفتى ؟ ..

من يعلم الغيب ؟ .. وأحسَّ كأن ضباباً كثيفاً يتكون شيئاً فشيئاً أمام عينيه المتطلعتين إلى المستقبل ، ولم يفق الحاج من شروده إلا على يد الحاجة وهي تربت ذراعه :

ـ وماذا في أن يتعلم الفتى الدين ؟

ونظر الحاج إلى حسين قائلاً :

ـ أخشى يا حسين أن تكون اخترت الأزهر لأن التعليم فيه لا يكلف مالا ..

ـ لا .. لا .. لا أبداً يا أبا الحاج .

ـ إن أمنيتي أن تكون محامياً أو طبيباً .. فإني أعتقد أن مصر في أشد الحاجة إلى المحامين حتى يدافعوا عن حقوقها ، أو الأطباء حتى يشفوا المرضى بها .. وهم كثير .. إنني فعلاً أرجو أن تكون واحداً من هذين .

وقال حسين وقد نكس رأسه :

ـ وأنا لا أريد من الدنيا إلا أن أنفذ رغباتك جميعاً ، ولكني أحس أنني لن أوفق إلا في الأزهر الشريف ..

وصمت الحاج والى قليلاً مداعباً حبات مسبحته ثم قال :

- يا ابنى أنا لا أحب أن أملى عليك ما تفعل ، لتكن مشيئة اللّه نافذة ... تستطيع أن تجهز نفسك لتذهب إلى الأزهر بإذن اللّه .

وأشرق وجه حسين وانبسطت أسارير الحاجة ، وأكمل الحاج والى تسبيحه وإن كان الضباب ما يزال جاثماً أمام ناظريه .

(١١)

كان زين العابدين بك مسافرا إلى القاهرة ، وقد انتهز الحاج والى الفرصة فرغب إليه أن يصحب حسين ويمهد له السبيل فى الإقامة بالقاهرة التى لم يرها الفتى قبل ذلك أبداً .

وهكذا هبط حسين القاهرة لأول مرة فى رفقة زين العابدين بك ، ولو لم يكن فى هذه الرفقة لعاد مرة أخرى طريقه إلى القرية وقد استقر فى نفسه أن القاهرة جميعاً ترتحل ، وإلا فما هذا الزحام وهذه الضجة وهؤلاء الناس ، وما هم جميعا ملهوفين متسارعين تتصادم أيديهم أو يتصادمون جميعاً بعضهم ببعض ، كأنهم مطالب الحياة المتعارضة المتضاربة !! أهكذا المدينة يعجل أهلها إلى مقاصدهم فى هذه السرعة اللاهفة وهذا الجد الصارم ؟ ما لهم يمر بعضهم ببعض أو يحتك بعضهم ببعض فلا تحية ولا سلام ولا حتى اعتذار ؟ . مشدوه حسين مما يرى فهو ذاهل عما يحمله من أثاث ومؤونة . يتولى عنه زين العابدين بك الإنفاق على الحمالين ، وقد كان الأثاث قليلاً غاية القلة ، وكانت المؤونة كثيرة غاية الكثرة ، فالأثاث سرير وصندوق كبير ، والمؤونة سلال متكاثرة انسكبت عليه من حنان الحاجة بمبة ، ومن شعور جده وجدته بما عليهما من واجب نحوه .

وفى غمرة الدهش والذهول وجد حسين نفسه مسوقاً مع الموجات المسوقة وقد أمسكت بذراعه يد زين العابدين لا تفلته ، وأحس لحظة باليتم وخيل إليه ـ وإن كان لا يدرى لماذا ـ أن يدا ما تمسك هؤلاء السائرين جميعاً فهم قطيع سائر يلتمس المرعى أو يلتمس المأمن .

وخرج حسين إلى باحة المحطة الخارجية .. إن ثمة متسعاً كسعة الريف ، ولكن العربات الكارو والحنطور والسيارات والناس تعدو على هذه السعة ، فهى زحام .. ووجد نفسه فى عربة حنطور بجانب زين العابدين بلك وكاد ينسى ما يحمله ، ولكنه نظر خلفه فوجد كل ما حملته إياه القرية قد وضع فى عربة حنطور أخرى فلم يملأ من فراغها إلا قليلاً . نعم إلا قليلاً ، فما أقل ما حمل من القرية من أثاث ، وما أكثر ما حمل من القرية فى نفسه .

وراحت العربة تسعى بهما فى شوارع القاهرة . الحصان يسير وقد وضعت حول عينيه من الجانبين قطعتان من الجلد ، حتى لا يبصر إلا ما يريد له قائده أن يبصر ، فهو يمشى بالعربة ولا يملك أن يبصر إلا ما تتركه له قطعتا الجلد ، فالطريق أمامه ليس إلا بقية مما تترك له الغمامة وصاحبه مع ذلك لا يعفيه من الضرب فهو يسوطه من حين إلى آخر . ونظر حسين إلى الحصان . لقد عرف الحصان طريقه وإن تكن غمامة حول عينيه ، وإن يكن صاحبه يسوطه إلا أنه عرف طريقه ، أيستطيع هو إلا أن يعرف طريقه .. أتراه يعرف طريقه ؟ إنه تائه فى هذا الزحام وفى هذه الشوارع الواسعة ، ودون وعى أمسك بذراع زين العابدين وتمنى لو يبقى معه لا يتركه ، ولكن هيهات ، فإنه ليعلم أنه ما هو إلا بعض الوقت حتى يتركه زين العابدين فرداً يواجه هذه القاهرة جميعاً بكل ما فيها من ناس وخيل وعربات وعلم .

البيوت الفخمة يتضاءل بجانبها أكبر بيت فى القرية ، والمآذن الفارعة سامقة إلى السماء ، فالأذان منها دعوة من السماء إلى الأرض أن تشرئب إلى

الله هدى في السبل القائم ، وضياء يبدد الظلمات ، وصفاء يدحر العتمة الكثيفة من الرغبات اللاهثة والمطالب المتزاحمة . والناس يمضون في سبلهم لا يرفعون للمآذن عينا ولا يعنيهم إلا ما يقصدون إليه ، وحسين يزداد ذهولا على ذهول ، وزين العابدين يتفزز على مقعده في العربة يريد أن ينتهي من هذه المهمة لينصرف إلى قاهرته التي لا يعرف غيرها هناك في البار ، ومع النسوة اللاتي يستبدل الواحدة منهنّ بالأخرى ضارباً بوعده لابنته — وهي بعد وليدة ـ عرض الأفق والعربة يسعى بها الحصان والسوط يسوطه كلما جرى بضع خطوات في أوقات تكاد تكون منتظمة ، فما فعل شيئاً من أجله وإنما هي رغبة سائقه وحبه أن يسوط شيئاً أي شيء ، دون أن تدعو لهذا حاجة من تلكؤ أو عصيان لأمر .

وفجأة انتقلت العربة من الشوارع الفسيحة العريضة إلى أخرى ضيقة ، ومازالت تضيق حتى أصبحت العربة لا تسير إلا بشق النفس فهي تزحف زحفاً ، وتنهال السياط على الحصان ويتدافع السباب إلى المارة ، فما تجدى السياط ولا يفلح السباب ، والتفت السائق إلى زين العابدين يسأله عما يريد من مناطق الدراسة ، وقال زين العابدين :

ـ أريد أن أجد بيتاً للشيخ .

وتنبه حسين فجأة أنه شيخ وأنه يلبس العمامة والجبة الخضراء والقفطان الزيتوني .. لقد أذهلته القاهرة عن نفسه ، وعما يلبس ..

وقال سائق العربة :

ـ أعرف بيتا هنا به حجرة خالية على سطح .. أتريد أكثر من حجرة يا مولانا .. ؟

وابتهج حسين من كلمة مولانا ، وقبل أن يجيب كان زين العابدين يقول :

ـ وأقل من غرفة إن أمكن .. أين هي ؟

وقال السائق :

ـ نترك العربتين هنا ونذهب لنتفق .

وقال زين العابدين :

ـ لماذا .. ألا نستطيع أن نذهب بالعربة إلى هناك ؟

ـ البيت فى زقاق ضيق .

وقال زين العابدين :

ـ وهل البيت بعيد ؟

ـ لا .. إنه هنا على بعد خطوتين .

ونزل زين العابدين ولحق به حسين ، وتقدمهما السائق بعد أن أوصى زميله الآخر أن يولى العربة عينا يقظة .

ومشى الركب ، لم يكن البيت على بعد خطوتين لا ولا ثلاث ولا عشر ، لا ولا تصلح الخطوات وحدات لقياس المسافة التى يبعدها البيت عن المكان الذى تركوا فيه العربة . لقد مشوا ما يقرب من كيلو ونصف كيلو .. ثم توقفوا . وطلب إليهم السائق أن ينتظروا لحظات ريثما يلقى صاحب المنزل . وصعد ثم نزل .. إن صاحب المنزل فى دكانه .. وأين الدكان ؟ .. على بعد خطوتين أيضاً .. وقال زين العابدين :

ـ ألا نرى الحجرة أولاً ، حتى إذا أعجبتنا نتفق .

وصعد السائق ثم ما لبث أن قال : تفضلوا .. كان المنزل مكوَّنا من ثلاثة طوابق ، ولكنها طوابق مرتفعة ، فدرجات السلم كثيرة ترتفع كل درجة عن زميلتها ارتفاعاً مضنيا ، وهكذا راح زين العابدين بك ينتزع نفسه انتزاعاً ليبلغ حجرة السطح حتى إذا بلغ الركب الطابق الأخير الذى لا يعلوه إلا السطح لاحظ زين العابدين ، كما لاحظ حسين أن الباب منفرج انفراجة هينة تسمح للعين أن تتلصص من الداخل إلى الخارج ، ولا تسمح للعيون

الأخرى أن تتسلل من الخارج إلى الداخل . والتفت زين العابدين إلى حسين، والتفت حسين إلى زين العابدين ! ولكن زين العابدين كان يلهث لا يستطيع أن يقول شيئاً إذا أراد أن يقول .. وكان حسين يفكر أفكاراً غير محددة ولا واضحة حول هذه الانفراجة التى طالعتهم من الباب الذى لا يعلوه إلا السطح . وقال السائق .

ـ لقد ألقت لى زوجة المعلم بالمفتاح من تحت الباب ، فأنا لا أعرف أين الغرفة وأين الحمام ؟ ولكنى سأجربها على كل حال ..

وتقدم بمفتاحه يعالج الأبواب الثلاثة على السطح ، حتى إذا انصاع له أحدها فتحه على مصراعيه وهو يقول :

ـ بسم الله ما شاء الله .. غرفة تشرح الصدر .. وها هو ذا الحمام أمامها مباشرة ..

وقال زين العابدين مشيرا إلى الباب الثالث :

ـ ما هذه ؟

ـ هذه ـ والله أعلم ـ غرفة أصحاب البيت التى يغسلون بها غسيلهم، بطبيعة الحال ، سيكون الغسيل فى الصباح ومولانا سيكون فى الأزهر ، فلا شأن له بهم .

كان التعب قد بلغ من زين العابدين مبلغاً لا يسمح له بالمناقشة ، فهو يسأل حسين فى سرعة :

ـ أتعجبك الغرفة يا حسين ؟

ولم يجد حسين سببا ألا تعجبه الغرفة فهو يقول :

ـ نعم .

وبعد ساعة أخرى كان حسين مستلقيا على السرير فى غرفته وحيداً فى القاهرة على سطح أول بيت دخله غير بيوت قريته ، ودمعة عينه منسكبة ، لم

يزد عليها إلا دمعة أرسلتها عينه الأخرى أحس أنها تريحه وهى تـأخذ سبيلها على خده ، وإن كـانت أسباب بكائـه متخفيـة فـى أعمـاق نفسـه لا يـدرى حقائقها ولا أسبابها ؟ وفى هدوء مد يده إلى صدره وتحسس الخطاب الكـامن هناك ، حتى إذا تأكد من وجوده رفع يده إلى عينيه يمسح عنها الدموع .. إن قريته لم تتركه وحيداً فها هو ذا خطاب الحاج سالم فخـر الديـن الـذى يوصـى فيه رفيق دراسته الشيخ صالح الأشمونى بحسين خيراً ، فى جيبه يؤنس وحشـته ويجعله يؤمل أنه واجد فـى القـاهرة إنسـاناً قـد يوليـه بعـض عطـف أو بعـض اهتمام ، وحسب الغريب فى غربته بعض عطف أو بعض اهتمام .

أحسن الشيخ والى حين سافر حسين أنه لم يحقق فيه الأمل الذى كان ينشده من تعليمه ، وصبرّ نفسه أنه على كل حال ليس ابنه ، وازداد عزماً أن يعلم ابنه التعليم الذى كان يريده له ، وكأنما أراد أن يستعجل السنين فهو يفكر أن يدخل محمدًا منذ سنّه هذه الباكرة إلى المدارس الأميرية ، وهمّ أن يفعل ولكنه ما لبث أن تذكر أن سنّه لا تسمح بذلك ، فانتظر على كره منه عازماً ألا يبدأ العام الدراسى الجديد إلا ومحمد تلميذ فى المدرسة الأميرية .

وكان محمد يذهب إلى الكتّاب فى انتظام ، وكان يخاف عصا الشيخ التى يتناول بها المهملين من لداته ، فهو حريص على أن يحفظ اللوح فيجيد حفظه، إلا أنه بعد أن سافر حسين وانفرد به اللوح أصبح الحفظ بالنسبة إليه عملية شاقة يبذل فيها ساعات طويلة كانت تخلو بفضل حسين ليلعب فيها « الحكشة » أو ما يحلو له ولرفاق ملعبه من ألعاب .

فهو الآن لا يفرغ من حفظ اللوح إلا والشمس قد مالت للغروب ، فهو لا يصيب من اللعب إلا حظاً يسيراً ، ولكنه مع ذلك لا يتخلى عن حفظ اللوح مهما يفقد من ساعات اللعب ، فلعب قليل مع تجنب لآلام العصا خير من لعب كثير يعقبه همّ كثير .

وكان محمد يذهب فى بعض الأحيان إلى بيت زين العابدين ليلعب هناك مع ابنته آمال وكان يصحبهما فى الملعب أطفال آخرون من بينهم رشاد أبو عبد الباقى . وكان رشاد يلاحظ اهتمام آمال بمحمد ويحاول جهده أن يثير اهتمامها به ، فقد كان يحس فيها شيئاً مختلفا عن الفتيات الأخريات ، فملبسها غير ملبسهن ، وطريقة كلامها غير طريقتهن ، فهو يحس أن ثمة فارقا

بينها وبين بنات القرية وإن كان لا يدرى سبب هذا الفارق ولا حقيقته . وكان يرى في ذهابهم إليها دون أن تذهب هي يوماً إلى ملعبهم في جرن القرية فضلاً لها لا يمكن التغاضى عنه .

ولم يكن يدرى السبب في أن الصلة التي تصلها بمحمد أقوى من جميع الصلات الأخرى التي تصلها بأطفال القرية ، فما كان يعلم أن الحاجة بمبة كثيراً ما تزور بهية هانم مصطحبة معها محمدًا في زياراتها ، ولكن رشاداً لا يهمه من هذه الأسباب جميعاً إلا أن محمدا أقرب إلى آمال منه ، وهو لا يقبل هذا فهو يتحين الفرص لينال من محمد نيلا يصيب منزلته عند آمال ، وقد واتته الفرصة من قريب .

كانوا يلعبون أمام بيت زين العابدين حين جاءت الحاجة لتزور بهية هانم وكان الليل قد أوشك أن يخيم على القرية ، فرأت الحاجة بمبة أن ينتهى لعب الأطفال فهي تنادى محمد وآمال وتصعد بهما إلى الطابق الأعلى . ويضيق رشاد بهذا ضيقاً شديداً فإن أمه لا تكثر من زيارة بهية هانم كما تفعل الحاجة، ولا يستطيع هو أن يصعد وحده فما له من رفيق يجعل صعوده طبيعياً، ولكنه يأبى أن ينصرف مع الأطفال الآخرين الذى انصرفوا ، فهو يمكث مراقباً لباب البيت منتظراً ـ وإن كان لا يدرى لماذا ـ خروج الحاجة بمبة ومحمد .

وفى الطابق الأعلى يكون إجهاد اللعب قد أخذ من محمد مأخذه ، فما هى إلا أن يريح جسمه إلى الكرسى حتى يهاجم النوم عينيه فيستسلم له فى إذعان ودعة ، والحاجة بمبة مشغولة عنه بالحديث إلى بهية هانم ، حتى إذا حان موعد الانصراف نظرت إلى محمد فى كرسيه فوجدته فى نومته العميقة ، وتحاول أن توقظه ولكن بهية هانم تلح عليها أن تتركه يقضى الليل عندهم



وتعدها أنها ستوقظه فى الصباح ليذهب إلى الكتاب ، وتشفق الحاجة بمبة على محمد وتتركه وتأخذ سبيلها إلى الخارج .

وما تكاد تغادر باب زين العابدين حتى ينبت رشاد من ثنايا الظلام :

ـ أين محمد يا خالتى الحاجة ؟

ـ بسم اللّه الرحمن الرحيم ، ماذا تفعل هنا يا رشاد ؟

ـ لا شىء .. كنت هنا .. أين محمد ؟

ـ نام فتركته عند الست حتى الصباح ..

وفى الصباح أيقظت بهية هانم محمد وقدمت إليه فطوراً كريماً وتركته ينطلق إلى الكتّاب ، ومر محمد بمنزله فأخذ اللوح وتوجه إلى الكتاب . وهناك كان رشاد قد دبر مؤامرته ، فقد لقيه الشيخ فى غضبة عنيفة :

ـ أين بت الليلة يا محمد ؟

ـ فى بيت زين العابدين بك .

ولم يزد ، فقد أمر به الشيخ فأمسك غلامان بقدميه ، وانهال الشيخ عليهما ضرباً مبرحاً . وبينما كان الحاج والى يختم صلاة الضحى فوجئ بضجة على الباب فنظر من شباكه فوجد محمد على حمار يبكى بكاء مراً ، فخف إليه فوجد قدميه متورمتين لا يستطيع أن يلمس بهما الأرض ، واحتمل الشيخ ابنه وقلبه ينفطر لهفا عليه ، وما إن أودعه السرير حتى قصد إلى الشيخ فى كتابه ..

ـ لماذا هذا يا عم الشيخ عبد العظيم ؟

ـ ألم ترسل لى رشاداً أن أضربه لأنه بات ليلته خارج المنزل ؟

ـ لا ... لم أفعل .. وإن كنت فعلت أهكذا يضرب الأطفال ؟ .. لن يعود محمد إلى الكتاب ثانية يا شيخ عبد العظيم .

وخرج الحاج والى وقد ازداد إصراره أن يتوجَّه محمد منذ الآن إلى التعليم المدرسى ، فهو يقصد إلى زين العابدين ويتفق معه على أن يشارك محمد آمال فى الدراسة المنزلية ، حتى يبدأ العام الدراسى الجديد فيذهب إلى مدرسة البندر .

أما رشاد فلم يكفه ما وقع عليه من عقاب الشيخ الذى حرم مما كان يفيده من تعليم محمد ، بل زاد الطين بلة أن محمدًا أصبح رفيق آمال فى الدرس أيضاً لا فى الملعب وحده .

(١٣)

اشترى الحاج والى عربة وحصاناً حتى ييسر لمحمد أن يذهب إلى المدرسة فى الصباح الباكر ، وقد كان يشفق على الطفل الصغير وهو يصحو معه فى الفجر ، ثم يخرج إلى برد الشتاء القارس ليقطع ثمانية كيلو مترات إلى المدرسة . وكان الحاج والى كلما تساءل .. أتساوى الحياة هذا الجهد ؟ نبتت أمام عينيه تلك القطعة من الضباب جواباً عن تساؤله فيزداد على حيرته حيرة ، ولا يملك إلا أن يوقظ وليده فى فجر اليوم التالى فيصليان الفجر معاً ، ثم ينفتل الطفل إلى مدرسته لا يدرى ما يكابده أبوه من ألم لخروجه هذا ومن تساؤل وحيرة ..ألهذا كنت أتمنى لى ولداً .. ألهذا ضحت أمه بحياتها ؟ وضحت زوجتى بكرامتها ؟! أنجيء بهم لنملأ حياتهم تعبا ؟ ونملأ حياتنا إشفاقاً ؟!

وماذا لقى محمد بعد من الحياة ، وماذا أفعل حين يوغل فيها ويتلقاها بوجهها هذا القاسى الجامد ؟ ويتصاعد الضباب أمام عينيه يغلق على نفسه منابت التساؤل والحيرة ويلقى بنفسه إلى دفاع الحياة .

عاد محمد فى يوم من المدرسة وهو يحس رعشة تهزّ جسمه جميعاً ، فأسنانه تصطك فتصك جسمه كله كأنها المطارق ، وأطرافه ترتعش رعشة تهز كيانه فهو كنبات هش ضعيف انصبت عليه ريح عاتية توشك أن تقتلعه من الجذور .

وتلقته الحاجة بمبة بإشفاق وراحت تضع عليه الأغطية وتحيطه بزجاجات الماء الساخن ، ولكن الرعشة لا تريم عنه فإنما هى فى مكان خبىء من جسمه ، لا يدرك مكانها الماء الساخن ولا يصل إليها دفء الغطاء !!

وأقبل الحاج والى من الخارج فوجد ابنه على حاله هذه ـ فهو يسارع إلى البندر ويجتلب الطبيب الذى يقرر أن الطفل قد أصيب بالتهاب رئوى حاد .
وحين يسأله الحاج والى :

ـ أخطر هذا المرض ؟

ـ كل الخطورة .

ـ وماذا أفعل ؟

ـ الأعمار بيد اللّه .. !

الأعمار .. وهل بلغت الحالة إلى ذكر الأعمار .. الأعمار .. أكل ما كان ينتهى إلى هذا .. أكانت الحاجة بمبة تخطب لى ، وكان موت صالحة المسكينة من أجل الالتهاب الرئوى .. أهو الذى يحصد ثمرة ما ضحت به المرأتان الطيبتان ؟! من أجل هذا يأتى الأطفال ؟! ولدى . ماذا ؟ ماذا أنت فاعل بى؟.. أهذا أملى بعد أن تحقق .. أكان قد تحقق من أجل الالتهاب الرئوى .. أيرضى اللّه بهذا ؟ .. نعم يرضى . فما هذه الدنيا بالتى يجزى اللّه فيها المحسن خيراً والمسىء شراً .. ألم يمت إبراهيم بن محمد رسول اللّه .. وحيده.. مات طفلا .. فلماذا لا يموت محمد بن والى ؟ وما محمد بن والى فى حساب الدنيا ؟ مجرد روح صغيرة لم تتفتح بعد للحياة ، وما والى ؟ شقى من الأشقياء

قطع عمره على أمل أن يكون له طفل حتى إذا كان .. جاءه الالتهاب الرئوى . وفى الآخرة يتولى اللّه ثوابه .. ولكنى بشر .. لقد صبر النبى على بلواه .. أترى أصبر أنا ؟؟ يارب إننى أصغرمن هذا الامتحان ، وأنت تدرى.. أنت تدرى أننى أوهى عظاماً وأقل صبرا من أن أحتمل هذا الابتلاء .. يا رب إنك تقول المال البنون .. وتقول ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين .. فليكن ابتلاؤك فى المال .. كل المال .. أما البنون فما عندى من بنين إلا محمداً هذا فدعه لى .. فما أنا بالذى يصبر لهذا البلاء .. إنى أعلم وإنك تعلم أننى أقل من هذا البلاء . يا رب .. يا رب ..

كان الدعاء والدواء والصبر هوكل ما يملك الحاج والى . وكانت الحاجة بمبة هى التى تقوم بتمريض الطفل فى حنان وأناة وامتثال تكاد لا تذكر إلا أنه ابنها ، فما عرفت لنفسها ابنا إلا بالتبنى وما عرف هو أما إلا هى ..

وفى بطء شديد شفى محمد ، وعادت الابتسامة إلى الحاج والى وعاد النوم إلى الحاجة بمبة .. أحس الحاج والى بسعادة .. سعادة لم يعرف لها مثيلاً فى حياته .. ما أحلى أن يكون لى ابن يحيط به الخطر ثم ينجو .. كأنما أصبح لى ولد جديد .. إنهم ليمدون قلوبنا بالسعادة والجدة هؤلاء الأطفال .. لا .. لا شىء يعدل أن يشفى ابنى من مرض خطير .. لا .. لا شىء يعدل هذا فى الوجود .

وواجهت الحاج والى مشكلة أخرى .. أيعود محمد إلى المدرسة فيتعرض للبرد مرة أخرى وللمرض ؟ .. وسرعان ما حسم المشكلة .. فماذا يصنع محمد إن لم يذهب إلى المدرسة ؟!!

ومن جديد عاد الحاج والى يوقظ محمد فى الفجر فيصليان جماعة . ثم ينفتل محمد إلى مدرسته ليواجه البرد الشديد والحر الشديد والعلم الثقيل .

(١٤)

كان زين العابدين جالساً فى شرفة داره ينتظر عربته أن تعود من المحطة حاملة حماته وحماه الذى أبرق إليه أنه قادم فى يومه هذا .

وكان زين العابدين سعيداً فى انتظاره هذا ، فقد تولت ثلاثة كلاب أو كلبان وكلبة تسليته بتمثيلهم أمامه قصة الثلاثى الخالد الزوج والزوجة والعشيق ، وقد اندمج ثلاثتهم فى أدوارهم اندماجاً أنساهم المتفرج الوحيد زين العابدين .

وقد اختارت الكلبة دور المنتظر لا تجنح بعواطفها أوتصرفاتها جنوحاً ينبئ عن حقيقة مشاعرها ، بينما راح الكلبان يعتركان ويتجه كل منهما إلى الكلبة كلما خيل إليه أنه بلغ من عدوه ما يشتهيه له من هزيمة ، فما يلبث الآخر أن يلحق به فى منتصف الطريق يرده عن الكلبة أن يصل إليها . ولم يكن زين العابدين يعرف أى الكلبين هو الزوج وأيهما العشيق فإنهم فى دنيا الحيوان يتقاربون فيختلطون ، ولكن زين العابدين رأى فى عينى أحد الكلبين ذلة وانكساراً ، ورأى فى عينى الآخر توقحاً وجرأة ، وكاد يعرف من هذه النظرات حقيقة كل منهما ، إلا أنه عاد فاختلط عليه الأمر لا يدرى مدى ما أصابه من صدق النظرة وقوة الاستنتاج . واستطاع أحد الكلبين ذو النظرة المتقحمة أن يصل إلى الكلبة آخر الأمر ، واستقبلته العاهرة استقبالا حارًّا جعل الآخر كسير النظرات مذهولا محجما عن محاولة كان قد بدأها ليرد الكلب المنتصر ، وكأنما أصاب هذا الترحيب من الكلبة كبرياءه فهو ينعم النظر حيناً ، وتبدو عليه ألوان الحيرة والذلة والرغبة والزهد، ثم يولى الكلبين والمتفرج ظهره وينصرف عن المسرح جميعاً .

ولو كان للمسرح ستار لأسدل على الكلبين الآخرين ، فإن الرواية كانت بلغت ما يجب عنده أن تتخفى شخوصها بين الكواليس ، ولكن زين العابدين

ظل يرنو إلى الكلبين متشوقاً إلى القاهرة وصديقته الجديدة سنية شخلع حسيراً فى الوقت نفسه لقلة المال معه ، أسيفاً أنه لم يعد يستطيع أن يبيع أكثر مما باع فقد تضاءلت أرضه فأصبحت أربعين فداناً ، وما يستطيع بعد ذلك أن يبيع منها شيئاً ، ولا يستطيع كذلك أن يواجه ما تحتاج إليه سنية من مصروفات . ولا هو مطيق أن يهجر سنية أو البار فهو فى دوامة من الحيرة يتخبط بين جدران خوف من الفقر ، ومن الرغبة العارمة لبقاء محبوبته ، ومن قلة الأرض لا تستطيع أن تغل له ما يكفى رغباته ، ولا يستطيع أيضاً أن تتضاءل أكثر مما تضاءلت . وقد كانت حيرته هذه قديمة ليس للكلاب فيها شأن إلا تذكيره بحقيقة تسيطر عليه أغلب الوقت . وقدكان بقاؤه بالقرية أكثر مما يضيق له ولكنه لا يملك إلا أن يبقى بها ، وإن كان هو لا يتولى زراعة الأرض بنفسه بل يؤجرها إلى الفلاحين ، فإشرافه على المستأجرين إشراف هين لا يستغرق من وقته إلا أقل وقته ، ثم هو يفرغ بعد ذلك إلى هذه الحيرة وهذا الضيق بالقرية ، وهذا الشوق اللاهف للقاهرة وسنية والبار .

أفزع الكلبين العاشقين صوت العربة وهى تأخذ موقفها أمام البيت وانتبه زين العابدين وهمّ يستقبل زواره فى حفاوة وتوقير فقد كان يعلم أن حماه وحماته لا يحبان شيئاً فى الدنيا أكثر من أن يلاقيا التوقير أينما ذهبا .

وتقدم زين العابدين من العربة وأمسك يد حماته ينزلها منها . سيدة فى الخمسين من عمرها ولكنها تتخذ من الملابس والحجاب ما يجعلها فى الستين، فوشاح أبيض يحيط برأسها ، وخمار شفاف يدور حول أسفل وجهها الوردى اللون الذى لا تزال آثار نضرة تتخايل فيه ، وبين الوشاح على الرأس والخمار على الفم تطل عينان فيهما طيبة وفيهما ذكاء وفيهما حب سيطرة لاتجد مجالا ولا متنفسا . أما قوام الست ازدهار الناضورجى فكان معتدلا لا يتهم بنحافة ولا يعاب بإفراط سمنة . ونزلت ازدهار هانم وتبعها زوجها زكى

بك الناضورجى وهو ذو شارب يلقى منه كل عناية وتكريم ، أحمر الوجه قصير القامة أصلع الرأس حتى لا يفلح الطربوش الأحمر الزاهى فى إخفاء صلعته جميعاً . إنما تظل قطعة كبيرة منها بادية من مؤخرة الطربوش حيث ينسدل الزر فى نظام وإحكام . وكأنما كانت هذه القطعة من الصلع تغافل الطربوش فتخرج إلى العيان دون أن يشعر بها .

وقبّل زين العابدين يد حماته ، وانحنى وهو يسلم على حميه انحناءة لا تخطئها العين ، وشاعت فى عينى ازدهار هانم علائم رضى وهومت ظلال ابتسامة على شارب زكى بك ، وأخذ الجميع سبيلهم إلى الطابق الأعلى . ومن ثم استقبلتهم بهية فى ترحاب يحيط به كثير من القيود فلا يبدو إلا فى تقبيلها ليد أبيها ويد أمها ووجنتها ، وإن كانت فى دخيلة نفسها تريد أن تحتضن كلا منهما وتقبله قبلات كثيرة عارمة ، وكأنما كانت آمال تدرى ما فى نفس أمها فهى تهاجم جدها وتتعلق برقبته ويقع طربوشه على الأرض ويتخلج هو فى وقفته حتى ليوشك هوأيضا ، ولكنه يتماسك وهو يغالب الضحك على فمه محاولا بكل جهده أن يجعل من ابتسامته كشرة فلا يفلح جهده ، وتتركه آمال إلى جدتها ، فما هى إلا ضمة واعتناق حتى ينهتك ستر السيدة الوقور ، فالخمار فى الأرض والوشاح فى منتصف الرأس والسيدة غير غاضبة ولا عاتبة ، وكأنما كانت تشتهى هى أيضا هذا اللقاء من ابنتها ، فأجابت حفيدتها خوافى رغباتها . وبهية تحاول أن ترد الابنة العاتية فلا تحفل بها ، وزين العابدين ينظر فرحا أن رأى طربوش زكى بك الناضورجى على الأرض لأول مرة فى حياته ، فهو لم يره قبل اليوم إلا منتصبا على رأس صاحبه لايميل ولا يحيد ، مثله مثل شارب زكى بك نفسه . ثم ها هو ذا اليوم يرى الطربوش فى الأرض والشارب مهوشا من أثر تقبيل آمال ، وتعربد فى نفس زين العابدين ضحكة لا مبالية تذكره بالبار وسنية شخلع وهو يرى

زكى بك ينحنى فى وقار إلى الطربوش يلتقطه مختلسا النظر إلى زين العابدين كأنما كان يريده أن يلتقطه هو بدلا منه أو كأنما يريده - على الأقل - أن يبدو وكأنه غير منتبه للطربوش الساقط وانحناء البك الكبير لإحضاره.

وتنتهى معركة الاستقبال ، ويجلس الجميع ويدور الحديث ولكن لا يكاد، فإن زكى بك يقول فى أمر حازم :

- زين العابدين بك .. أنا سآخذ ابنتي وحفيدتى معى إلى مصر .

وتعجب زين العابدين وقال فى دهشة :

- نعم .. لماذا .. لماذا ياسعادة البك ؟

- البنت كبرت ، ولا بد لها أن تدخل المدرسة .

وصمت زين العابدين فإن هذا حق لا سبيل إلى التغاضى عنه ، وهو لا يريد لها أن تتعلم تعليما مشوها ، كما أن وجود ابنته فى القاهرة يجعل ذهابه إليها مقبولا أمام نفسه على الأقل ، ولكن لماذا تذهب زوجته ؟ نعم .

- ولماذا تذهب بهية ؟

- لتمكث معها فترة حتى تتعود على المدرسة .

وأطرق زين العابدين ، وقال زكى بك :

- زين العابدين بك .. هل أنت مشغول هذه الأيام هنا ؟

- أنا .. لا.. أبدا .

- إذن تذهب أنت أيضا معنا ، وتدخل ابنتك إلى المدرسة وتتنزه فى ..

وقطع زكى بك جملته وتنحنح ، ثم استطرد فى لهجة جادة صارمة كأنها لا تعنى شيئا على الإطلاق .

- أظن أنك لاتمانع .. هيه .. لامانع .. هيه .

وأطرق زين العابدين وكأنه يمتثل لأمر لا سبيل إلىالتخلص منه .

- أمرك يا سعادة البك ..لامانع .. لامانع .

(١٥)

ثلاث سنوات مرت بحسين فى القاهرة .. ثلاث سنوات يذكرها وهو مستلق على سريره بجواره قطة تلوذ بيده الحانية عليها فى غرفته المنفردة مثله على سطح بيت ساقته إليه عجلة زين العابدين بك ، وأبقاه فيه خوفه أن يواجه البحث عن بيت جديد ، فقد كان يخشى أن يلقى من الغربة أكثر مما لقى ، ولحجرة عرفها لمدة يوم ثم أسبوع ثم شهر أحب إليه من أخرى لم يعرفها قط مهما تكن تفضلها .. لا .. لايريد أن يوغل فى الاغتراب أكثر مما اغترب ، فهو يبقى فى الغرفة ، باردة فى الشتاء حارة فى الصيف ، لكنه ألفها وألفته ،وقل أن يجد شيئا يألفه فى القاهرة الكبيرة الواسعة المترامية الأطراف . ومع الأيام التى أصبحت شهورا فسنين أصبحت هذه الحجرة على السطح ملاذه ومأمنه هرع إليها هالعا من القاهرة فأمنت خوفه وأقرت مضطربه ، واستراح بين ضلوعه قلب مفزوع شديد الوجيب عاصف الضربات. ليس ينسى يوم فزع إلى غرفته هذه فى ذلك اليوم المشؤوم من أيامه الأولى فى القاهرة ، يوم نزل مزهوا بجبته وقفطانه وحذائه اللامع يتبختر فى الشوارع يزين لنفسه أن يتفرج على القاهرة ، معتقدا أن الأعين فيها جميعا سوف ترمقه بالإجلال والإكبار . وسار على غير هدى ، وراح يتلفت حواليه أينما سار محاولا ما وسعه الجهد أن يرى أثر قفطانه وعمامته الزاهية على من يمر بهم من الناس ، حذرا كل الحذر أن تنحدر هذه الدمعة التى لا تترك عينه ، فهو يمسح خده سواء لديه كانت الدمعة منحدرة أو كان مكانها جافا لا أثر للدمع فيه . وتعود إليه نظرته توهمه أن العيون تتبعه وإن كان هو فى بعيد نفسه يعلم أن ما تلقيه إليه نظراته وهم لا يتصل بسبب إلى الحقيقة .

فالناس منصرفون عنه إلى ما يشغلهم من حديث أو عمل أو لهو ، ولكنه مع ذلك يحب أن يصدق أوهامه أكثر مما يحب أن يصدق الحقيقة التى يعلمها ، فهو وقور فى مشيته بطيئة خطواته قليلة حركاته إلا تلك اليد يمسح بها من حين إلى آخر دمعته الحقيقية أو الموهومة لا يدرى ، وإنما هى يده يرفعها بين الفينة والفينة حتى لاتصيب الدمعة شيئا من وقاره أوأناقته .

وظل سائرا يتهدى به شارع إلى حارة ، أو حارة إلى زقاق ، حتى انتهى به المطاف إلى أصوات عالية أوضح ما فيها أيمان مغلظة تتراوح بين أيمان الطلاق والقسم بالله ثلاثا ، وراح يقترب من الأصوات لأن طريقه يحتم عليه أن يقترب منها حتى أصبح فى مركز الدوامة من الصراخ المرتفع .

ـ وأنت من أدراك بكلام الله .. يارجل دع العلم لأهله .. أنا لم أرك فى يوم من الأيام تلبس العمامة .. إلا إذا كان ذلك قبل أن أعرفك .. أى قبل أن تولد .

– يارجل .. يا رجل اتق الله .. زوجتى طالق يا شيخ إن لم تكن هذه الآية من كلام الله .

– تعنى أنها من القرآن .

– فى القرآن .

– زوجتى طالق ثلاثا إن كانت فى القرآن أو كانت تعرفه أو شافته ..

الرجلان على جانبى الطريق .. أحدهما على باب دكان حوله رهط من الأصدقاء ، والآخر على المقهى فى الجهة المقابلة يحيط به هو الآخر رهط من المعجبين . وكلا الرجلين يريد أن يكون ذا علم وحسين يمر بينهما وتختطف أذنه هذا النقاش فيسير طريقه واثقا أن الجماعة ستنشغل بنقاشها عن قفطانه وعمامته ، ويعبر حسين المقهى والدكان ويوشك أن يبتعد ، ولكن الصراخ ينقطع بشكل مفاجئ فلا يسمع حسين إلا كلمة واحدة .

- نسأله .

ويعقبها صوت يصبح أصواتا :

-يا أستاذ .

ويمضى حسين سبيله ولكن الأصوات تتعالى :

- يا سيدنا .. يا سى الشيخ .

ويقف حسين ويلتفت وفى عينيه سؤال يريد أن يتأكد به أنه هو المقصود، وتتعالى الأصوات مرة أخرى :

- نعم أنت .. تسمح لحظة .

ويتجه حسين إلى الجمع ، ويبادره الرجل الجالس إلى المقهى :

- نريدك فى سؤال .

ويفرح حسين فقد واتته الفرصة مبكرة أن يصبح أهل إفتاء ، فيجلس القرفصاء معتمدا قدميه دون أن يلامس جسمه الأرض ، موليا وجهه إلى أهل المقهى وظهره إلى أهل الدكان وقال وقد تمكن من جلسته :

- نعم .

- هل فى القرآن : وإذا الصحف تطايرت وانتشرت .

ويقول حسين فى وقار وثقة :

- لا .. إنما يقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « وإذا الصحف نشرت، وإذا السماء .... » .

ولا يكمل الآية ، وإنما هى ركلة فى ظهره ترفعه إلى أعلى قليلاً ثم تهوى به على الأرض منكفياً على وجهه ، عمامته نافرة عن رأسه وصوت يطن فى أذنه :

- ألم يبق إلا العيال نسألهم فى كلام اللّه .. وأنت ماذا تفهم فى كلام اللّه يا ابن .. يا ضائع .. قم .. قم خيبة اللّه عليك وعلى أبيك .

ويغرق الجانبان فى الضحك لمنظر حسين وعمامته ، ويقفز حسين إلى عمامته حيث هى وينفجر باكياً ، وينتهز مكاناً خالياً وينفلت منه وقد علا بكاؤه تملأ نفسه الحسرة ويروح يعدو ، وقد أحست نفسه الظلم مريراً خانقاً يزيده الرعب مرارة وحنقاً ، لا يجد متنفساً منه إلا الدموع والنشيج .

وراح يعدو لا يدرى إلى أين ، وانغلقت عليه المسالك فأصبح لا يدرى كيف يصل إلى حجرته ، فيقف وينظر إلى حاله ، وينظر إلى خلفه حتى إذا استيقن أنه غير متبوع راح يتحسس طريقه إلى الحجرة حتى بلغها ، وحين دخلها عاوده الأمن وإن لم تفارق نفسه المرارة .. احتضنته الغرفة ذلك اليوم ووجد فيها مأمناً ووجد فيها أنيساً .. هذه القطة التى عرفها أول ما عرفها فى ذلك اليوم ، وكأنما جاءته ليشكو إليها ما وقع له ، ولتشكو هى إليه الجوع والتسكع ، كان هو وحيداً بغربته ، وكانت هى وحيدة بجوعها ، والتقى الاثنان وبدأت بينهما فى ذلك اليوم صداقة لا تزال مشدودة الأواصر حتى يومه هذا .. لا ... لا ينسى حسين كيف كانت هذه الغرفة مأمنا من الفزع وكيف صارت القطة أنيساً له من الوحدة .. وليس ينساها أيضاً فيما وقع له بعد ذلك من ظلم .

كان ذلك بعد إقامته فى القاهرة ببضعة أشهر، وكان الأزهر قد أتاح له بعض صداقات . وكان أقرب الأصدقاء إليه فتى من القرية المجاورة لقريته سبقه إلى القاهرة بسنة واستطاع أن يجد عنده ما يحب من حديث عن أماكن وأشخاص يعرفها كلاهما ، هذا الحديث الذى يذيب الوحشة ويثير الحنين ويشعر الإنسان بدفء الحياة فى ظلال بلدته وعلى وديانها وحقولها ، وتحت النخيلات هناك وعلى ضفاف النهيرات ، وذلك الحديث الذى لا يجده حسين فى القاهرة إلا حين يلم به الحاج والى وقليلاً ما يفعل ـ ثم هو لا يستطيع أن يفيض معه فى الحديث إفاضة الصديق إلى صديق ، وإنما هى أسئلة

يمنعهاالإجلال أن تكثر ، ويعوقها الخجل أن تصل إلى التفاصيل . أما حين يتحدث حسين إلى صديقه حمدى فالذكريات المشتركة والأماكن التى يعرفها كلاهما والأشخاص الذين تربطهم بهما صلات الملعب والكتاب . فقد كان كتاب القريتين واحداً. وهكذا توطدت الصداقة بين حسين وحمدى ، وأصبح حمدى مرشداً لحسين فى القاهرة . وصار حسين يبتعد عن حى الدراسة مطمئنا إلى خبرة حمدى ومعرفته بالطرق ، فهو يزور أحياء القاهرة معتمداً فى السير على رجليه ، وفى معرفة الطريق على حمدى .حتى كان يوم زارا فيه حديقة الحيوانات وأتما زيارتها وأرادا العودة ، وكان التعب أخذ منهما أخذاً وبيلا فقد قضيا يومهما جميعه سائرين وقال حسين :

ـ نركب الترام .

ـ نركبه .. لكن اسمع .. أتريد أن نركب أم تريد أن أجعلك تتنزه نزهة أخرى .

ـ أنا متعب .

ـ إنها نزهة مريحة .

ـ كيف ؟

ـ نركب سلم الترام بدلا من الترام نفسه ، فنكسب مكسبين ، الأول أننا سنكون خارج الترام لنتفرج على الشوارع التى سنمر بها فرجة لا نستطيعها من داخل الترام ، أما المكسب الثانى هو أننا لن ندفع شيئاً .

ـ لا بأس .

وكان حسين قد تعلم منذ حادثته الأولى ألا يخرج بعد الظهر بملابس الأزهر فهويلبس طاقية ومركوبا وجلبابا . وكان حمدى يرتدى مثل هذه الملابس أيضاً . وبدأ الاثنان المغامرة ولكن لم يكادا فقد ركبا أول ما ركبا تراماً ذا سائق لا يحب هذه العادة من الفتيان ، فما كاد الاثنان يقفان على

السلم حتى وجد حسين طاقيته تختطف عن رأسه ، وقبل أن ينظر إلى من اختطفها كانت طاقية حمدى تلحق بطاقيته . ونظر فإذا السائق يضع الطاقيتين على المقبض الذى يمسك به ليتحكم فى الترام وهو يقول :

ـ حتى لا تركبا مجاناً مرة أخرى يا أولاد الكلب .

وراح حسين وحمدى يستعطفانه ولكن الرجل ظل صامتاً وكأنه فقد النطق، حتى إذا بلغا الحناءة شديدة أمال السائق الترام بعنف ، فإذا حسين وحمدى على الأرض . وقام كلاهما يجرى ولم يكن الترام فى سرعته الكاملة فهما يعدوان بجانبه يستعطفان السائق أن يرد إليهما الطاقيتين ولا يجيب . ويخشيان أن يثبا مرة أخرى إلى السلم أن يضربهما الرجل الصارم . وزاد الترام من سرعته وزاد الاثنان من سرعة عدوهما وينفلت المركوب من رجل حسين ، ويستقر على شريط الترام وتمر عليه العجلات الحديدة فإذا هو نصفين ، ويقف حسين ويضطر حمدى للوقوف . كانت المصيبة واحدة فصارت مصيبتين ، والطاقية مهما تكن من الوبر غالية إلا أنها على أية حال أرخص من المركوب . ويمسك حسين ببقايا المركوب بين يديه والترام يبتعد عنهما بالطاقيتين ، وينظر حسين إلى حمدى :

ـ أرأيت شورتك .. نتفرج ولا ندفع !

ويضع حسين فردة المركوب تحت إبطه ، ويمسك بالمركوب الآخر الممزق ويقطع الطريق حافياً ، حريصاً أن يميل إلى كل محل أحذية يلاقيه كبيراً كان أو صغيراً . يسأل الواقف به سؤالين :

ـ أيمكن إصلاح هذا ؟

ـ لا ؟

ـ أيمكن أن تبيع لى فردة واحدة .

وقد يجيب المسئول بلا ساخراً ، أو يجيب بطرده هـو وصاحبـه فـي صلـف وكبرياء .

ويصل حسين إلى غرفته ، ويقفل الباب ويرتمي إلى فراشه ويبكي .. وتثب القطة إلى جانبه فيمد إليها يده بغير وعي ويمسح على ظهرها وتنحدر الدموع من عينيه .

كانت الحجرة في ذلك اليوم ملاذا في بؤسه وشقائه .. فهـو إذن لا يريـد أن يتركها فقد ألفها وألفته .

وألف أيضاً أهل البيت . فإن زوجة صـاحب البيـت وهـي شـابة فـي ريـق العمر كثيراً ما تلقى إليه نظرات فيها عطف وفيها انتظار لشيء لم يكن حسين يدرى ماذا تنتظر ، ولكنه كان يحس أن هناك شيئاً تنتظره هذه الفتاة .. ولكن الأيام في مرورها البطيء جعلته يعرف أن هناك ما تنتظره امرأة من رجل ومـا ينتظره رجل من امرأة . حين بلغ اليـوم الـذى يعـرف فيـه هـذا الشـيء كـان يقول كلما تذكر الست مفيدة أعوذ بالله من الشيطان الرحيم . أعـوذ باللـه من الشيطان الرجيم .

مر وقت طويل على الحاج والى لم يزر الزقازيق ، فانتهز فرصة وجود بعض غلال عنده يريد أن يبيعها فأخذ أهبته لزيارة البندر وسأل الحاجة بمبة إن كانت تريد شيئاً ؟ فذكرت له ما تحتاج إليه ولم يكن ما تحتاج إليه كثيراً ، وأخذ الحاج والى طريقه إلى البندر راكبا عربته الحنطور التى كان قد طلب إلى سائقها أن يعود إليه بعد أن يذهب بمحمد إلى المدرسة .

وفى الزقازيق لم يجد تاجر الغلال الذى تعود أن يعامله فراح يشترى ما طلبته بمبة ، حتى إذا انتهى من الشراء مال إلى المقهى الذى يجلس إليه كلما ألم بالبندر ، وفجأة تذكر أنه منذ زمن بعيد لم يزر محمدًا فى المدرسة ليعرف كيف يسير فى الدروس .

فانتهز الفرصة وقام إلى المدرسة .

وكأنما كان الناظر ينتظر :

ـ كنت سأكتب إليك الآن .

ـ خيراً .

ـ المدرسون يشكون من محمد .

ـ لماذا ؟ .

ـ لا يريد أن يكتب فى الفصل ويهمل واجباته ..

وصمت الحاج والى قليلاً .. أهكذا تنتهى آماله ؟! أهذا ما كان يصبو إليه؟! أيربى طفلا ليس ابنه فيتجه من التعليم وجهة لم يكن يبتغيها .. وحين يريد أن يربى ابنه هو الوحيد يعزف عن التعليم جميعاً ؟ ويلتفت إلى الناظر ــ وفى قلبه هم ثقيل كأنما هو أمام طبيب يعلنه بنهاية الحياة ..

ـ ماذا أفعل ؟

ـ أتراك لينا معه ؟

ـ لا أدرى .. فأنا لا أؤخر له مطلباً ..

ـ لعلك لو اشتددت عليه بعض الشيء ..

ـ بل أريد أن أشتد عليه كل الشدة .. إنه ابنى الوحيد يا حضرة الناظر..

ـ أعرف ..

ـ وليس لى أمل فى الحياة إلا أن يتعلم ..

ـ أعرف .

ـ ماذا لو ضربته الآن أمام إخوانه ؟

ـ عقاب شديد لا أريد أن تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .

ـ إذن ..

ـ عقابا أهون من هذا ..

ـ حسن .. سيسير محمد فى دراسته على أحسن وجه ..

ـ وسأجيء إليك كل أسبوع لأتأكد من ذلك بنفسى .. وأشكرك يا حضرة الناظر ..

وخرج الحاج والى عائدا إلى المقهى ، وانتظر حتى موعد خروج محمد وركب العربة وانتظر مع المنتظرين . وخرج محمد وفوجيء بأبيه فى العربة ..

ـ سلام عليكم يا آبا ..

ـ اركب .

وركب محمد وسارت العربة ، ولم ينبس الحاج والى بكلمة وظل محمد صامتا حائرا وقد داخل نفسه هلع لا يدرى مأتاه ، فما هكذا عوده أبوه .. كان يتحرق شوقا لا يدرى ما يعتمل بنفس أبيه ...

ولكن أنى له هذا وهو لايستطيع أن يفتح حديثاً يغلق أبوه أبوابه .. !

وصار الطريق الذى يقطعه محمد مرتين كل يوم دون أن يحس طوله ، طويلاً لا ينتهي ، فقد كان محمد يحادث السائق فى أثناء الركوب أما الآن فهو في صمت مطبق لا يشغله إلا صوت العجلات وحوافر الخيل والخوف الراعد الذى يملأ قلبه .. وأحس الحاج والى بالحيرة التى يعانيها ابنه .. ولكن أين هى مما يشغل قلبه من حزن وألم ؟!

ووقفت العربة أمام البيت ، وقفز محمد يريد أن يبتعد عن نفس أبيه هذه الغاضبة .. ولكن أباه عاجله :

- انتظر .

وكأنما كانت الكلمة حبلا يمسك بالطفل الصغير فهو يقف مكانه متسمرا، ويهبط الحاج والى من العربة ولا يقول إلا كلمة واحدة :

- تعال ..

ويدخل محمد وراء أبيه ويجدان الحاجة بمبة في بهو البيت ، فيلقى عليها الحاج تحية سريعة ويدخل إلى الحجرة وهو يقول لمحمد :

- تعال ..

وينظر محمد إلى الحاجة وتنظر إليه وتقول :

- انت عملت حاجة؟

وقبل أن يجيب محمد يعلو صوت الحاج والى مرة أخرى فى غضب :

- تعال ..

ويدخل محمد إلى الغرفة ، وتهم الحاجة أن تلحق به ولكن الحاج والى يردها فى شئ من اللين ..

- انتظرى قليلا أنت ياحاجة ..

وترجع الحاجة إلى مكانها من البهو ، ويغلق الحاج باب الغرفة بالمفتاح :

- لماذا لاتكتب فى الفصل ؟

ويصمت محمد .. لقد عرف الآن السر في غضب أبيه ولكن لات حين معرفة .. ويصرخ أبوه في وجهه :

- انطق .

ويرتعد محمد من هول الموقف ، ويعود أبوه يسأله :

- ولماذا تهمل في واجباتك ؟

ولم ينتظر الحاج والى بل إن يده كانت أسرع من إجابة محمد وانهال على الطفل ضربا ، والطفل باهت أمام أبيه تدور عيناه في محجريهما ، ويحس شيئا ساخنا يبل فخذيه ..ثم تنفجر عيناه بالبكاء والأب يضرب حتى أصبح لا يريد أن يقف .. ويصرخ ..

- ماذا .. أمجنون أنت .. ليس لى إلا ابن واحد ويريد أن يصبح ضائعا تافها .

ويضرب ... والفتى يحيط وجهه بذراعيه .. والأب يضرب لا يدرى أين مواقع ضربه !!ويضرب .. والطفل يبكى ، حتى صرخ الطفل أخيرا بصوت علا على صوت أبيه :

- كفى يا آبا .. كفى ..

وكأنما كانت كلمات الطفل القليلة يدا سلطت على قلب الحاج والى فاعتصرته اعتصارا .. كانت كلمات بسيطة قليلة ليس فيها اعتذار ولا طلب مغفرة ، ولكنها هزت كيانه كله حتى أوشكت الدموع تطفر من عينيه .. كفى يا آبا كفى .. لم يقل غيرها ..فما له قد زلزل زلزالا ، وما له قد كف يده وكأنما قبضت عليها يد أخرى قدت من حديد !! وتنبه إلى طرق زوجته على الباب ففتح لها ، ولم تسأله وإنما أحاطت الطفل بحنانها وأخذته وخرجت من الغرفة . .

وظل الحاج والى وحيدا .. ألهذا كنا نأتى بهم .. لعذابهم وعذابنا ؟ ومرة أخرى عاد الضباب يغشي ناظريه ، إلا أنه في هذه المرة كان ضبابا أكثر كثافة من كل مرة .. وأخرج الحاج والى مسبحته وراح يسبح ..

– لا حول ولا قوة إلا بالله ..سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله .

(١٧)

لم تكد بهية تستقر فى بيت أبيها حتى سارعت إلى التليفون تطلب صديقة الطفولة نعيمة . فقد طالت بينهما الغيبة فهى إليها مشوقة تريد أن تسمع من أخبارها الكثير الذى تجمع فى هذه الفترة المتطاولة التى لم تزر فيها القاهرة . وكأنما كانت نعيمة معها على موعد .. فإن عامل التليفون لم يكد يدق لها جرس تليفونها حتى رفعت السماعة واتصل صوت الصديقتين .

وما كان التليفون إلا وسيلة لتتم الزيارة ، فما أن انتهى الغداء حتى كانت نعيمة فى بيت زكى بك الناضورجى مصطحبة معها ابنتها ناهد .. أما الأم فسيدة فى ريق العمر عدا السمن على جسمها فهو مترهل ، ولم تعد السنون على وجهها فهو ناضر ، ذات شعر أسود ، وثغر يحتفظ لنفسه من الحياة بابتسامة كثيرا ما تصبح ضحكة رنانة تصدر عن قلب يهفو إلى السعادة تخلصت من كل تفكير أو هم ، لها عينان تشقان طريقهما فى الحياة بشعاع من الهناءة المترعة والسعادة الغامرة ، فيهما تطلع إلى ما يجتلب إليهما السرور والمتعة ، وفيهما قدرة أن يتجنبا كل ما من شأنه أن يزيل الابتسامة عن الفم والسعادة عن القلب .

أما ابنتها فطفلة لم تزد على عمر آمال .. إلا أنها أكثر منها حركة وحياة، ورثت عن أمها الشعر الأسود والابتسامة ، وقد يرد أمها عما تصبو إليه

بعض خجل أو حياء ، أو قد يردها عمر ليس بالطفل .. أما الابنة فلا شيء يردها فهى تفعل ما تريد وقتما تريد .

جلست الأمّان وسرعان ما بدأ الحديث بطيئا وانيا أول الأمر ، ولكن ما هى إلا لحظات حتى تفجر الينبوع وتشابك الحديث كأنه غابة من الكلمات المتدافعة ، حتى أصبحت كل منهما وهى لا تدرى إن كانت صاحبتها تسمع أو لا تسمع ، وإنما كل ما تعنيان به أن تتحادثا .

ولم تستطع ناهد أن تصبر طويلا على حديث الأمّين ، فما أسرع ما تمت الصداقة بينها وبين آمال ، وما أسرع ما انسحبتا من الغرفة لتخلوا إلى حديثهما هما أيضا .

- ماذا تعملين فى المدرسة ؟

وتجيب آمال :

- أنا لا أذهب إلى المدرسة ..

- ياه ، وماذا تعملين ؟

- ألعب مع محمد أمام بيتنا - هناك فى البلد .. هل عندكم بلد مثلنا ؟

- لا .. ولكنى أذهب إلى المدرسة ، وفى البيت نغنى ونرقص .

- أنا أتعلم فى البيت ، وبعد الظهر ألعب بالكرة ..

- تجىء عندنا الست عطيات .. المغنية المعروفة .. مشهورة جدا .. أتعرفينها ؟

- لا .. أنا أذهب إلى الغيط وأركب النورج .. هل عندكم نورج ؟

- لا .. أنا أرقص وأغنى مثل الست عطيات ، أترقصين ؟

- أنا .. أبدا .

- يا خسارة !! سأعلمك الرقص .

- وأنا سأعلمك ركوب النورج وأجعلك تضربين البقر الذى يجر النورج.

ـ عندما ترقصين تصفق لك أمك وأبوك والزوار ..

ـ عندنا إسماعيل أبو شعبان .. أخذنى لأتفرج عليه وهو يدير الطمبور .. أتعرفين الطمبور ؟

ـ الست عطيات أحسن واحدة تدق الصاجات ..

ـ كان إسماعيل أبو شعبان يلف الطمبور وهو عارى الساقين فيخرج الطمبور ماء .

ـ الماء عندنا فى الحنفية .

ـ وفى الصيف كنت أقف بجانب الغلة وهم يذرونها فى الهواء فتطير ، ثم يسقط الحب وحده والتبن وحده ..

ـ نحن فى الصيف نصعد إلى سطح البيت وتغنى الست عطيات وترقص ، وكنت أرقص معها .. ويقول أبى إننى أرقص أحسن منها ، ولكن أمى تقول إنها أحسن من يمسك صاجات فى مصر ..

وقالت الست بهية لصديقتها نعيمة :

ـ وناهد هل تذهب إلى المدرسة ؟ ..

ـ نعم .

ـ ما اسم مدرستها ؟ ..

ـ واللّه لا أدرى .. أبوها هو الذى أدخلها .

ـ ألا تعرفين مدرسة ابنتك ؟

ـ وأنا مالى !!

ـ كيف ؟

ـ يا أختى بلا هم .. وماذا ستعمل بالعلم ؟ .. مصيرها تتزوج .. أحسن لها أن تتعلم كيف ترضى زوجها ..

وتضحك بهية ضحكة مجلجلة وتقول :

- وهل تعلمت هذا ؟

- ترقص على كيفك ..

وتقول بهية وبقية الضحكة ما زالت عالقة على شفتيها فى شكل ابتسامة:

- ولكنى أريد أن أدخل آمال المدرسة .

- أسأل لك عبد السميع عن مدرسة ناهد ..

- وأخبرينى غدا بالتليفون .. قولى لى .. كيف حالك مع زوجك ؟ أما زال مبسوطا من ضحكك ولهوك ؟؟

- الرجال أطفال .. الضحكة تجعلهم كالخراف يفعلون ما تشائين .. لا يؤخر لى طلبا .. طلبت منه أن يشترى جهاز ناهد من الآن فاشترى ..

- وما الداعى ؟

- ألا تعلمين أنه كان متزوجا أخرى وله منها أولاد ؟ وأنا ليس لى منه إلا ناهد .. إن لم أحصل على كل ما أستطيع منه فى حياته ضعت بعده ..

- أنت لئيمة ولا يبين عليك ..

- لا يا حبيبتى .. الضحك شىء والجد شىء .. جعلته يبيع أرضا لى وسجلها فى المحكمة .. لا .. كل إنسان يجب أن يبحث عن مصلحته..

- وهو يطيع دائما ؟

- ضحكة هنا ، ورقصة هناك ، وليلة أنس يتم ما أريد ، وأنت ماذا تفعلين ؟!

- أنا زوجى ليس له إلا آمال ، ولا أعرف شيئا عن أحواله إلا أنه رجل طيب ويفعل ما أريد ..

- وهل يحب آمال ؟

- يعبدها ..

- وهل تضحك عليه مثل ناهد ..؟

- آمال .. أبدا .

ـ لا .. ناهد تعرف كيف تضحك على أبيها ، إن شافته وهو زعلان مكشر تهمس فى أذنى وتضع الحزام حول وسطها ، وأطبل أنا وترقص هى فإذا تكشير أبيها ضحك وانبساط .. انتظرى حتى أجعلها ترقص لك ..

ـ انتظرى أنت حتى أنادى زين العابدين وبابا ونينا ليتفرجوا عليها ..

ـ وأنا كيف أقابلهم ؟..

وسكتت بهية لحظة فقالت نعيمة :

ـ أطبل لها من هنا وهى ترقص فى البهو..

وتجمعت العائلة ، وأمرت الأم ابنتها أن ترقص ولم تعترض الابنة أو تدعى الخجل .. كأنما هى راقصة محترفة تنتظر موعدها لتحيى الليلة ، وبدأ الرقص وراحت ناهد تتمايل فى أنوثة محترفة ، وظهر العجب على وجه زين العابدين وقطب زكى بك بعض الشىء ! ، وارتسمت ضحكة طيبة على وجه ازدهار وفرحة ساذجة على وجه بهية . وفجأة مالت ناهد برأسها إلى الخلف حتى كاد رأسها يلامس الأرض ، وفى غمرة الدهش صفق زين العابدين تصفيقا حارًّا فهو لم يتوقع أن يرى من الطفلة الصغيرة ما يراه فى الكباريه ، ودون وعى تقدمت آمال إلى المسرح وراحت تهز نفسها مثلما تفعل صديقتها الجديدة ، وقال زكى بك دون وعى :

ـ بنت !!

ولكن البنت لم تسمع ، وخجل زكى بك أن يصر على منعها خشية أن يمس هذا إحساس نعيمة صديقة ابنته ، واندمجت آمال فى الرقص مع ناهد ، وراح زين العابدين يصفق تصفيق الخبير محترف الكباريه ، وراحت امرأته وحماته تقلدانه فى تحرج ما لبث أن أصبح حماسة .. بينما تصاعد الدم الأحمر القانى إلى وجه زكى بك ، فغمر وجهه وصعد إلى رأسه حتى أصبحت القطعة الصلعاء التى تغافل الطربوش وتبرز للعيان من الخلف فى لون الطربوش ذاته.

إن له لنغمة حلوة قريبة إلى النفس يصبو إليها القلب فى تجـاوب خفـاق ، عـذب هـو لا تملـك الأذن إذا سمعتـه إلا أن تميـل إليـه فـى حنين يملـك علـى الإنسان مشاعره جميعا ، فكأنما الدنيا لم تخلق إلا ليسمع الإنسان فيها الشعر . يقولون إن للخمر نشوة فما نشوتها إذا قيست بنغمة الشعر الجميـل الجـرس الحلو الأرانين ؟ فالقلب حين يصغى إليه وجيب ، والعين دمعـة حـائرة تنطلـق عن السعادة غامرة وهناءة تتماوج فى النفس جميعا .

هكذا أحب حسين الشعر .. فحياته منذ أحبه شعر .. وليس غير الشعر.. يستعير الدواوين من مظانها جميعا ، ويحفظ العـروض فيجيـد حفظـه ، ويحفـظ المنظومات الأزهرية جميعا فى سهولة ويسر .. ويحب شواهد النحو التى يضيق بها إخوانه من الأزهريين ، شعر ، أصبحت آفاق حياتـه كلهـا شـعرا ، ولكـن آماله فى أن يصبح شيخا للوعظ لم تبرح نفسه .. فهذا أمـل راسـخ فـى بعيـد نفسه ليس له عنه حول ولا منصرف.. آمال الصبا الباكر والطفولـة الحالمة ، الجبة والقفطان والعمامة والنساء والرجـال وهنيـة ، وخاصـة هنيـة ، يقبلـون يده، ومن يدرى فقد يأتى يوم يقبلون فيه طـرف الجبـة .. الخضـراء ، أو غـير الخضراء .. وإن كان لا بأس بالخضراء . وأقول شعرا . شعرا فى الصوفية .. فى حب اللّه .. فإنه لا يجوز لشيخ مثلى أن يقول فى غير حب اللّه .. ولكنـه شعر جميل يستثير مكامن الدموع ، ويداعب خوافى الأشجان ويجعل النفس تثوب إلى الإيمان من حب اللّه والتفانى فى ذاته العليـا سـبحانه . وكـانت يـد الشيخ اليمنى تداعب قطته وهو مستلق على السرير تاركـا لآمالـه الحريـة أن تفعل به مـا تشـاء .. وانتبه الشـيخ إلى نفسـه وإلى يـده تداعـب فـرو القطـة الناعم، ويده الأخرى تمسح دمعة عـن عينـه . وحيـد ليـس لى إلا القطـة ، ألم تصدف عن صاحبة البيت . لكم عرضـت عليـك أن تنظـف لـك الحجـرة أو

تغسل لك الملابس ولكنك أبيت فى إصرار . بل إنك حتى رددت الطعام الذى أرسلته إليك مع الخادمة الصغيرة .. أستغفر اللّه العظيم .. أستغفر اللّه العظيم .. ولكنى وحيد .. أتصلح هذه الكلمة بداية قصيدة ؟.. أو تكون مثل هذه القصيدة صالحة للتصوف .. لا بأس أن أقول فى الحب العفيف أو فى المشاعر الإنسانية البعيدة عن الدنس والعياذ باللّه .. فالوحدة موضوع لا بأس به .. أتراك لو كتبت القصيدة تمتدح الوحدة ؟ أم تراك تقول ما تجده فيها من بؤس وضياع .. ما هى إلا سنوات قليلة .. نعم .. نعم تصبر نفسك، إنما هى سنوات قلائل وتصبح وحدتك شملا مجتمعا .. أنت وهنية .. نعم إنك تريدها زوجة .. هنية .. تلك البنت .. الفتاة التى تريدها أن تقبل يدك أو طرف جبتك .. نعم فإنه لا رهبانية فى الإسلام .. أريد أن أحترف الوعظ وأتزوج وأنجب البنين والبنات .. وأعوض نفسى عن الوحدة الطويلة التى عانيتها .. طويلة .. طويلة هى الوحدة .. القطة .. الوقت المتثائب .. رائحة الركود . الزمن المتجمد .. الضياع فى طوفان الفراغ .. دوامة الصمت .. لا حس إلا تسبيح القطة ، لا رائحة إلا أنفاسها كأنها أنفاس الملل والضيق والضياع .. لا عمل إلا الانتظار لمجهول وذكريات من الماضى أضيق بها من كثرة ما تذكرتها ، وآمال فى المستقبل أكاد أزهدها لهذا الزمن الطويل الذى يفصل بينى وبينها .. مروعة هذه الوحدة .. لا .. لا شىء يصفها إلا نفسها .. الوحدة .. الانسلاخ عن البشرية المتماوجة حولك .. البعد عن دوامة الحياة، العزلة كأنك عمل سيىء . القطة وأنا . وفجأة وجد القطة تضطرب تحت يده وتقفز فتهوى يده إلى السرير ويجتذب نظره عن الحائط الذى أطال إليه النظر يريد أن ينظر إلى مكان القطة فيجد جسم إنسان .. امرأة .. إنها مفيدة زوجة صاحب البيت .. وينظر إلى الباب فيجده قد أقفل وإلى القطة فيجدها

متعبة عند الباب تنظر إليه وكأنما تنتظر ما هو فاعل ، ويعود إلى المرأة ثم يثوب إلى نفسه ، ثم ينتفض من مكانه ، يريد أن يقوم وهو يقول « أهلا » .
ذاهلة دهشة خائفة ، وقبل أن يقوم تدفعه يد المرأة فى جرأة .

ـ نم .

ويرتمى مكانه ..

ـ لماذا ؟

ـ إلام تظل خائبا ؟

ـ نعم .

ـ يا رجل اصح من نومك .. أصبحت رجلا .

ـ نعم .

وأطبقت بشفتيها على شفتيه ، والتهبت حواسه ، وحين أخلت سبيل فمه وجدته ووجد نفسه يقول :

ـ حرام .

فأطبقت على شفتيه مرة أخرى وحين تركته قال مرة أخرى .

ـ حرام .

ونامت المرأة إلى جانبه ، وهو لا يتوقف عن القول :

ـ حرام .. حرام .. حرام .

* * *

أقام صلاة الفجر حاضرة ثم تناول إفطاره وراح يذاكر بعض الحين ثم لبس ملابسه ومد يده ليتناول العمامة ، فأحس يده كأنها تريد أن ترتد عن العمامة دون أن تأخذها ، حتى إذا استجمع قواه اختطف العمامة إلى رأسه فأحس كأنها أطواق من حديد تضغط على رأسه حتى ليكاد رأسه ينفجر .

ليست هذه هى العمامة التى يعهدها ، لا ولا هى التى يتيه بها عجبا ، ماذا دهى العمامة ، ماذا ألم بها ؟.

خلع ملابسه وعاد إلى الحمام مرة أخرى وراح يسكب مزيدا من الماء على جسمه . وانهمر الماء وانهمر حتى إذا خيل إلى حسين أنه يستطيع أن يلبس عمامته دون أن يضيق بها أو تضيق هى على رأسه ، خرج من تحت الماء وعاد إلى غرفته . وقبل أن يجفف الماء عن جسمه انفرج الباب عن مفيدة. ولم يلبس حسين العمامة ، لا ، ولا ذهب إلى الأزهر فى يومه هذا .

لم تعد علوم الأزهر تعنيه إنما كان يهتم بالشعر فيها فقط ، وهو منذ عرف مفيدة أشد انصرافا عن العلوم الدينية . وكان يحس أنه غير متلائم مع ملابسه ولا مع المستقبل الذى يعد نفسه له . حتى لقد أخذ يتجه بآماله إلى آفاق أخرى غير الأفق الذى كان قد رصد له حياته .

ولكنه مع ذلك مضطر أن يظل على عهده من لبس الجبة والقفطان والعمامة ، وإن كان فى داخل نفسه يخلع العمامة والجبة والقفطان . لم يعد يعنيه أن يقول شعرا فى الصوفية وإنما أصبح يعنيه أن يقول شعرا أى شعر .. فهو يقرأ .. ويقرأ .. وطاب له العيش مع مفيدة ومع آماله العريضة أن يصبح شاعرا . ولكن هاجسا ما يلبث أن يهجس فى نفسه .. ماذا يفعل به الحاج والى .. إن هو اتجه إلى الشعر ولم يتجه إلى ما أراده لنفسه من تعليم دينى ؟.. وماذا يمكن أن يفعل الحاج والى .. بل ماذا يمكن أن أفعل أنا إذا غضب على الحاج والى ؟.. ضائع أنا شريد .. ألتمس الرزق من غير أبى .. بل من رجل لا تربطنى به صلة إلا الفضل منه والفقر منى ، ورغبته أن يفتخر أمام الناس أنه يغدق على عطفه ، ورغبتى أنا فى أن أتعلم ، وإن بذلت فى سبيل ذلك كرامتى وماء وجهى .

وليس لى اليوم محيد عن التعليم الذى أخذته لنفسى وإلا فأين أولى وجهتى من العلم .. لات حين .. لابد أن أكمل تعليمى حتى أجد ما أقتات به وليفعل بى الحاج والى بعد ذلك ما يشاء ، إنما بينى وبينه أن أنال شهادة .. أى شهادة .. لا . لا حاجة بى أن تكون شهادة العالمية .. فماذا يمكن أن تكون إن لم تكن العالمية .. وتدخل مفيدة وينقطع حسين عن التفكير .

(١٩)

فرغ الحاج والى من صلاة العصر وتربع على السجادة ، وراح يتمتم على مسبحته ، وكان ابنه محمد جالسا أمامه ، وراح الحاج ينظر إلى ابنه بينما كان محمد مشغولا بالمذاكرة . وأحس محمد نظرات أبيه فالتفت إليه ، والتقت ابتسامتان لا معنى لهما . وأطال الأب النظر إلى ابنه ، وظل الابن رانيا إلى أبيه حتى انتبه أخيرا الحاج والى ونكس رأسه إلى السجادة .. أيحرمنى حتى من متعة النظر إليه ، ما ضر لو تظاهر بأنه غير منتبه إلى . وأتاح لى فرصة أطول من النظر إليه .. راحة وهدوء يشيعان فى نفسى إذا نظرت إليه لا أدرى لهما سببا .

وعاد محمد إلى المذاكرة ، إنه فى طريقه الآن إلى البكالوريا يتحسس طريقه إلى الشباب فى خطى متعثرة يحدوها شوق عارم لمجهول من الحياة .

وعاد الأب ينظر إلى ابنه وفكر ، وما كان بحاجة إلى التفكير ..

كان قد أعد له المستقبل جميعا لم يغفل منه شيئا .. لا ، هو لا يريد أن يشق ضمير الغيب عن مستقبل ولده فهو يعلم هذا المستقبل ويعده فى أناة وثقة واطمئنان .

وقد ترك الابن لأبيه زمام مستقبله يخط فيه ما شاء أن يخط ، ليس له من اعتراض عليه ، بل إنه حتى لا يفكر أن يكون ذا رأى فى مستقبله .

ـ كبرت يا محمد .

ـ أطال اللّه عمرك يا آبا .. البركة فيك .

ـ إذا نجحت هذا العام .

ـ سأنجح يا آبا .

ـ ستذهب إلى مصر .

ـ إن شاء اللّه .

ـ لقد اتفقنا على الكلية .

ـ الطب .

ـ ولكن هناك أشياء لم نتفق عليها .

ـ أنا تحت أمرك .

ـ امتحانك بعد أسبوع .

ـ نعم .

ـ عندما تنتهى من الامتحان نتكلم ..

وقام الحاج والى عن السجادة ودلف إلى حجرة نومه فوجد الحاجة بمبة مستلقية على الفراش غير نائمة :

ـ هل أنت نائمة يا حاجة ؟

ـ لا أبدا .

وجلس الحاج والى على الأريكة ، وثنى رجلا إلى جسمه وأخرى إلى الهواء وقال :

ـ آن لك أن تفرحى بمحمد .

ـ ماذا ؟

ـ ابنك يا حاجة بمبة ، وهل له أم غيرك ؟
ـ وكيف أفرح به ؟
ـ أريد أن أزوجه قبل أن يذهب إلى مصر .
ـ تزوجه وهو تلميذ ؟.
ـ تلميذ فى الطب ..
ـ أليس صغيرا ؟
ـ سيكون وحده فى القاهرة .
ـ بل سيكون أخوه معه .
وصمت الشيخ قليلا ثم قال :
ـ تقصدين حسين ؟
ـ أليس أخاه ؟
ـ حسين مشغول يا حاجة .
ـ مشغول ؟!
ـ مشغول يا حاجة .

وصمت وانتظرت الحاجة أن يتكلم .. وأحس الضباب يتصاعد أمام عينيه وقال :

ـ عرف أنى مريض فلم يهتم حتى أن يرسل خطابا ، وعرف أنك مريضة ولم يسأل . وأنا أزوره لا أنقطع عن زيارته كلما ذهبت إلى القاهرة .
ـ كيف عرف ؟
ـ من حمدى .
وصمت ثم عاد يقول :

ـ لقد رفض حتى أن يأتى فى الإِجازة . ومع ذلك .. إيه .. إنما الأعمال بالنيات .

ـ إنه ابنك يا حاج .

ـ لا يا حاجة .. لقد أردت أن يكون ابني ولكنه هو لا يريد .. النهاية .. النهاية .

ـ هل قطعت عنه ما ترسله إليه كل شهر .

ـ وهل تعتقدين أننى أفعل مثل هذا يا حاجة ؟

ـ لا .

ـ المهم .. أريد أن أزوج محمدا .. ستكون لـه زوجة تعصمه من الزلل وتخدمه ، فيتفرغ هو للمذاكرة .

ـ أتريدينى أن أختار العروس ؟

ـ لقد اخترتها .. هنية بنت عبد الحميد الهراس .

ـ كبيرة يا حاج .

ـ وما البأس ؟.. حتي تعرف كيف تعامله ، وأبوها رجل طيب .

ـ أمرك يا حاج .. أأكلم أمها ؟

ـ على بركة اللّه .

وكان محمد لا يزال يذاكر فى البهو لا يفكر إلا فيما يقرؤه .

انتهى اليوم الدراسى فى مدرسة البنات وزاط الفصل بأحاديث كثيرة احتبست مدة خمس وأربعين دقيقة ، وانفجرت تريد أن تخرج جميعا طفرة واحدة فهى أخلاط من الكلمات ومزق من الجمل . وفى وسط الفصل وقفت فتاتان فى بواكير الأنوثة الصاخبة ، فأما إحداهما فتلقى على ظهرها سبيكة من شعر أصفر صقيل ينتظم من الخلف ، ولكنك إن نظرت إليه من أمام وجدته ثائرا فى عربدة حبيبة كموج البحر إن كان البحر من ذهب ، يموج حتى ينتهى إلى هذه الضفيرة فكأنه بحر يصب فى نهر ، وقد انسدلت منه خصلات على جبهة الفتاة فتذكر ساحل البحر الذى لا تدرى إن كان مخضلا بالماء أو هو جاف ، خصلات كخيال من الوهم لا تدرى أهى منسدلة أم هى تجرى فى تيار الشعر الآخر متجهة إلى السبيكة . ترى الخصلة حينا فإن أنعمت النظر لا تراها ، ثم تعود فتراها ، وهكذا استطاعت هذه الخصلة أن تجعل وجه آمال متجددا دائما لا تمل العين النظر إليه .

وهو مشرق كالصباح الوليد ذو عينين فيهما جرأة وفيهما شباب وفيهما خضرة حلوة يمازجها لون بنى ، حتى لا تكاد تدرى ما هو لونها الحقيقى . فأما أنفها فأفطس بعض الشىء ، يتبعه فم واسع فيه على سعته حزم وإقدام ، وهى ذات قوام حلو وإن كانت تميل إلى النحافة ، أوضح ما فى قوامها ثديان يشرئبان فى عربدة طاغية وفى أنوثة باكرة .

وأما الفتاة الأخرى فهى نحيفة أيضا ، وهى أيضا ذات أثداء عربيدة لها رقبة طويلة بعض الشىء لكنها لا تغض من جمالها ، ولها وجه أسمر يميل إلى الطول وعينان حالمتان تبدوان ضيقتين ، فإن أنعمت فيهما النظر أحسست أن

صاحبتهما هى التى تضيق منهما كأنها تحقق النظر فى شىء تحبه .. فنظرتها دائما كأنما تقول لمن تلقى إليه لكم أحبك ، وهى ذات شعر أسود غير ثائر ولا هادئ أيضا ، وإنما هو شعر قوى صقيل متكاثر تمسك بأطرافه ضفيرتان تأخذان سبيلهما على ظهر ناهد فى غيظ أن تقيدهما الأشرطة وإن كانت من حرير .

وأتمت آمال وناهد تجميع الكتب فى حقيبتيهما وخرجتا لا تلتفت واحدة منهما إلى التلميذات الأخريات ، فقد كانتا تحسان عند انتهاء اليوم الدراسى أنهما ردتا إلى العالم الخليق بهما بعيدا عن الدراسة والتلميذات والمدرسات ، وكان هذا الشعور ينبت فى صدر كل منهما دون اتفاق بينهما عليه ، أو على الأقل دون أن يتفقا عليه بلغة الكلام ، وراحتا تجتازان الردهة الطويلة التى تفصل حجرة الدراسة عن الفناء . ولم تأبه ناهد حتى أن تنظر إلى الفتاة التى اصطدمت بها فأوقعت منها حقيبتها ، وإنما مالت فى كبر فالتقطت الحقيبة بينما كانت آمال قد سبقتها بخطوتين ، ولم تتعمد ناهد أن تسرع من خطاها ولا اهتمت آمال أن تتمهل ، ولكن سرعان ما سارتا جنبا إلى جنب مرة أخرى ، ومرت أمامها مدرسة فوقفت الخادم الجالسة فى الردهة ، وفى عظمة رفعت لها آمال يدها وكأنها ترد تحيتها . وكانت ثلة من الفتيات تسير أمامها ، وجرت قطة من خلف آمال وناهد ودلفت من بين رجلى ناهد وقفزت إلى أرجل الفتيات ، ونظرت ناهد إلى أسفل ثم أرادت أن تواصل سيرها ، بينما راحت الفتيات يصرخن بين خائفة ومتظاهرة بالخوف ، وفى إهمال حالم عبرت ناهد وآمال ثلة الفتيات وواصلتا سيرهما إلى السلم وراحتا تنزلانه درجة درجة ، وأخيرا التفتت آمال إلى ناهد :

ـ أتظنين أنهم يأتون اليوم ؟

ـ طبعا .

ـ وهل .. ؟

ـ سنرى .

واصلتا سيرهما حتى خرجتا من الباب دون أن تنظر واحدة منهما إلى البواب الكهل الذى حياهما فى ابتسامة ساذجة ، وسارت الفتاتان فى الطريق حتى إذا بلغتا شارعا جانبياً انحرفتا إليه ، ولم يطل بهما المسير حتى انحرفتا مرة أخرى إلى طريق آخر ، وقالت آمال وكأنها فوجئت :

ـ جاءوا .

وقالت ناهد فى عظمة مطمئنة :

ـ طبعا .

ـ وماذا سنعمل ؟

ـ سنرى .

وسارتا وعبرتا السيارة المكشوفة التى كانت واقفة على جانب الطريق وبها شابَّان . فأما السيارة فأنيقة غاية الأناقة ذات خراطيم كبيرة من المعدن تخرج من مقدمتها وتتجه إلى أسفل فتكسبها عظمة وتفردا ، وقد كانت مقدمة السيارة طويلة والخراطيم كثيرة . وأما الشابان فقد كان أحدهما أسمر اللون نحيفا والآخر يميل إلى البياض قدر ميله إلى السمن وكان هو الذى يمسك بمقود السيارة . قد دأب الشابان أن ينتظرا آمال وناهد منذ ثلاثة أيام فى هذا الموعد : كما دأبا أن يسيرا خلفهما بالسيارة حتى تلتفت إليهما ناهد لتقول فى صوت هامس مثير :

ـ بيتنا هنا .

فيعود الشابان أدراجهما لينتظرا فى اليوم التالى ، ويسيرا ويسمعا النغمة الهامسة المثيرة ويعودا .

وسارت السيارة خلف آمال وناهد ، ولكن الشاب السمين سبق الفتاتين وأوقف السيارة ونزل منها واعترض الطريق ، وهمست آمال لناهد :

ـ ماذا سنعمل ؟

ولم تجب ناهد وإنما واصلت سيرها ، وأرادت أن تعبر الشاب وأرادت آمال أن تفعل مثلها ، ولكن الفتى مد زراعيه ونظرت إليه ناهد نظرتها الساجية وقد أضافت إليها بعض عتاب وقالت في همستها المثيرة :

ـ الناس .

وقال الشاب :

ـ نحن وحدنا .

وقالت ناهد :

ـ ماذا تريد ؟

ـ ماذا تريدين أنت ؟

ـ أروح .

ـ أما يكفى هذا ؟

ـ ما هو ؟

ـ كفى .

ـ ماذا ؟

ـ أتمانعين فى فسحة صغيرة بهذه السيارة ؟.

ـ وماذا نقول فى البيت ؟

ـ تقولين كان عليكما واجب فى المدرسة .

والتفتت ناهد إلى آمال :

ـ ما رأيك يا آمال ؟

وقاطعهما الشاب :

ـ تعيش الأسماء . وحضرتك ؟.

ـ ناهد .. هيه يا آمال .

ـ كما تشائين .

وقال الشاب : هيا .. هيا .

وحين بلغا السيارة نزل الشاب النحيف وهو يقول :

ـ أخيرا .. أهلا وسهلا.

ودلف إلى المقعد الخلفى ، وأمسك بيد آمال ، فركبت إلى جانبه وجلست ناهد إلى جانب صاحب السيارة ، واندفعت السيارة إلى الطريق .

استطاع حسين أن يكتب شعرا ، ووافته الشجاعة فراح يرسل شعره إلى المجلات فيقطع شعره طريقا واحدا ما له من عودة ، ويصبح آخر عهده به اليوم الذى يطويه فيه ويغلفه .

ولم يجد من يسمع شعره إلا حمدى صديقه الوفى وترب ملعبه وأخا دراسته. وكان حمدى على صلات بطلاب آخرين فى الأزهر سرعان ما اتصلت أسبابهم بحسين . ولكنه كان يخجل أن يلقى عليهم شعره حتى راح حمدى فى يوم يلح عليه أمامهم أن يلقى عليهم قصيدة « الطريق الجديد » وألقى حسين القصيدة .

كانت القصيدة تروى عن الحياة التى خاض حسين غمارها على يد مفيدة وإن كان لم يذكر فيها إلا الهوى العفيف والحب الخالص .

وقال أحدهم :

ـ اللّه اللّه يا سى الشيخ .

وقال آخر :

ـ إنها آمال يا سى الشيخ مجرد آمال .

وألح حمدى مرة أخرى أن يسمعهم قصيدته « الأمل الضائع » وهى تلك التى نظمها يوم علم بزواج أخيه من هنية ، ذلك اليوم البغيض الذى أرسل إليه فيه الحاج والى خطابا يدعوه أن يذهب إلى القرية ليحضر الكتاب فلم يذهب ، ومكث يومين فى حجرته لا يبرحها لا عمل له إلا نظم هذه القصيدة، واستقبال مفيدة كلما عن لها أن تزوره .

وألقى حسين القصيدة وكان ذهنه مشغولا فى أثناء إلقائها بالتحسر على آماله .. آمال الإنسان وآمال الشاعر فيه .. أتضاءلت الآمال حتى لم تصبح إلا هذه القصيدة ؟.. أتراها تضاءلت فأصبحت قصيدة أم تعاظمت فأصبحت قصيدة .. أيهما أعظم ؟ الآمال المنهارة أم القصيدة الرائعة .. أهى رائعة ؟! لقد قلت شيئا على كل حال وإنى أحس ما فيها من ألم ، إن لم أقل شعرا ، وأنا أرى أخى ينتهب آمالى فأنا لن أقول من بعد شعرا أبدا .. أكان يعرف ما بنفسى .. ألم أكن أخفى حبى لا يدريه أحد ؟ وماذا يهم إن كان يعرف أو لا يعرف ، لقد حطم لى هذا كل شىء ، ولا يهمنى إن كان يعلم أو كان لا يعلم.النتيجة واحدة .. وكان يلقى القصيدة والدمعة تنحدر من عينيه على خده وهو مشغول أن يزيلها ، بل لعله أرادها أن تنكسب فى هذه المرة فلعلها تستطيع أن تكسبه شكل شاعر إن كان لم يستطع أن يقول شعر شاعر .

وكانت القصيدة صادقة ، وكان شكل حسين ودمعته والأفكار التى تمور برأسه وهو يلقى القصيدة .. كل هذا جعل الجو المحيط به يستجلب إعجاب أصدقائه ، حتى لقد صفق بعضهم حين انتهى منها ، وقال الشيخ فهمى عبد القادر :

ـ لابد أن تنشر هذه القصيدة .

وانتفض حسين من أحلامه ، ومسح دمعته وقال :

ـ تنشر .. وكيف تنشر ؟

ـ إننى أعمل مصححا فى جريدة « الورود » ، وأستطيع أن أقدم هذه القصيدة لرئيس التحرير .

ـ صحيح ؟

ـ أى والله .

ـ فأنت تعرف رئيس التحرير ؟

- نعم .

- أتستطيع أن تنشر هذه القصيدة .. إننى لا أريد أجرا على نشرها .

وقاطعه الشيخ فهمى عاجباً !

- أجراً .. إنك ستعشينا على حسابك يوم تنشر القصيدة ..

- يظهر أنك لا تقدر معنى نشرك قصيدة فى مجلة « الورود » . معناها أنك ستصبح أحد شعرائها ، مثلك مثل محمود أدهم وأمين كامل .

وقال حسين فى لهفة :

- محمود أدهم .. أتعرفه ؟

- أراه كل يوم .

- ما أسعدك ! .. أنا معجب بشعره الغنائى كل الإعجاب .

- غداً تعرفه .

- يا ليت .

وقال حمدى :

- متى ستنشر القصيدة يا شيخ فهمى ؟

وقال الشيخ فهمى فى شعور عميق بالأهمية :

- كل آت قريب يا شيخ حمدى.. كل آت قريب .

(٢٢)

هنية فتاة بيضاء ناصعة البياض ذات شعر لا هو بالأسـود الداكـن ولا هـو بالأصفر الفاقع ، وإنما هو بين بين تطلقه بعـد أن تزوجـت دون أن تلـم ثـائره بمنديل أو ضفيرة ، وهى ليست طويلة بل لعلها إلى القصر أقرب ، سمينة بعض الشيء وإن كانت الآن سمينة غاية السمن ، ذات عينين واسعتين وفـم أوضـح ما فيه شفتان غليظتان ، تلقت تعليمها فى الكتّاب ، فتعلمت الجهل من أوثـق مصادره . فرحت يوم زواجها بمحمد غاية الفرح فقد كان الـزواج فـى ذاتـه هو الأمل المنشود الذى تهفو إليه أحلامها إذا أمست وأفكارها إذا أصبحت ، ولو كانت تدرى كيف خطبها محمد ، أو كيف خطبت لمحمد لـترددت كثيراً قبل أن تفرح . وإنما قيل لها عريس ، وابن الحـاج والى ، والقـاهرة ، وتصبـح ستاً فى بيتها ففرحت ، وهى تقيم الآن فى بيت بالسيدة زينب هـى ومحمـد ، ومحمد مشغول عنها فى البيت بالمذاكرة وخارج البيت بأشـياء كثيرة ، وهـى تستجدى الصداقات من الجارات ، وتلتئم بينهـن الصـلات . ويذهـب محمـد إلى بيوت أصدقائه فيجد غير ما يجـد فـى بيتـه ، فـالبيوت هنـاك نظيفـة مرتبـة وبيته قذر مهوش . فيزداد ضيقاً بزوجته ويكتم خبر زواجه عن زملائه ، فـإذا ألحوا عليه أن يزوروه يتنصل من الدعوة بشتى المعاذير فعنوانـه كزواجـه سـر من الأسرار لا يبيحه لأحـد حتـى ولا لصديقـه الأوفـى مجـدى عبـد العزيـز . وكان من الطبيعى أن يعتبره الأصدقاء عزباً غير متزوج فيشركوه فيما يشترك فيه غير المتزوجين ، فيشـترك تدفعه إلى ذلـك الرغبـات المكبوتـة فـى المغـامرة والمبالغة فى إخفاء أمر زواجه ، وهكذا صحبه مجدى إلى عزيزة فذهب متردداً

أول الأمر ، ثم أصبح يذهب إليها بلا صاحب ولا تردد . ويزداد محمد ضيقًا بزوجته ولكن هذا الضيق لم يمنعها أن تقول له بعد عام من زواجهما :

ـ لابد أن أذهب إلى البلد لألد هناك .

وكان محمد يعتبر نفسه طبيباً منذ التحق بكلية الطب .

ـ لا يمكن ، وكيف أكون طبيباً وتلدين في البلد ؟.

ـ وأنا لا يمكن أن أضع بعيداً عن أمي .

ـ نرسل إلى أمك تأتي إلى هنا وتلدين في المستشفى .

ـ لقد نذرت أن أجعل الحاجة زينب أم عوضين هي التي تولدني .

ـ الحاجة زينب .. هذه المرأة العجوز الراعشة اليدين .

ـ ما لها ؟.. أليست هي التي جاءت بك إلى الحياة ؟.

ـ بل إنها هي التي أودت بأمي إلى الآخرة .

ـ لن يولدني غيرها .

ـ بل سيولدك الطبيب .

ـ لن يكون هذا .

ـ لن يكون إلا هذا . سترين .

وكان محمد يواجه امتحانه ولكنه لم يجد بداً أن يسافر بامرأته إلى البلد ويعود في اليوم ذاته .

وحين انتهى محمد من الامتحان سافر فوجد امرأته قد وضعت له ولداً ، ووجد أباه قد أسماه أحمد . وحين يبدأ العام الدراسي الجديد يرجو أباه أن يبقي زوجته وابنه عنده حتى يستطيع أن يفرغ هو للمذاكرة ، لأن الطفل سيجعل الأمر عسيراً عليه . ويحس أبوه في وخز الحديث أنه تعجل في أمر زواجه ، ويعود الضباب يتصاعد أمام عينيه ، ويرحب بكَنّته وحفيده أن يقيما ما حلا لابنه أن يقيما .

ولا تشعر هنية من ذلك حرجاً ، بل إنها تحس نفسها أقرب إلى الحياة التى تحبها فقد ضاقت بالقاهرة هذه الفترة التى أقامتها فيها ، وكل هذا لم يمنع إحساساً واهناً فى نفسها يلح عليها أن محمدًا يريد أن يبتعد عنها ، ولا تأبه كثيراً بهذا الإحساس فقد جاء أحمد ولا مفر لمحمد من أحمد ومن أم أحمد .

(٢٣)

كان حسين جالساً فى حجرته حين جاءت مفيدة وأغلقت الباب من خلفها ، وبعد حين قالت :

ـ لم أعد أنا الوحيدة .

ـ لا أفهم .

ـ تعرف غيرى .

ومسح حسين الدمعة المنحدرة عن عينه وقال :

ـ أنا ؟ ! من قال هذا ؟ !

ـ مثلى لا يفوتها هذا .

ـ أبداً والله .

ـ لا تحلف إنك شيخ محترم ، لا تحلف .

ـ أحلف صادقاً .

ـ والله إن حلفت على المصحف ما صدقتك .

ـ يا شيخة اعقلى .

ـ اعقل أنت يا شيخ .. تريد أن تلف على أنا ، وقد كنت قطة مغمضة وفتحت أنا لك عينيك .

ـ على فكرة .. أين القطة ؟ .

ـ القطة .. وهل تسأل عليها .. إنها هى الأخرى أحست أنك لم تعد تهتم بها فتركتك إلى غيرك .

ـ من غيرى ؟

ـ لا شأن لك .

ـ وهل هى وحدها التى تركتنى إلى غيرى ؟

ـ ومن غيرها ؟

ـ لعلك أنت أيضاً تفكرين فى تركى .

ـ أنا لا أترك صاحبى حتى وإن كنت أعرف أنه يلعب بذيله .

ـ هل القطة عندك ؟

ـ أتريدنى أن أسلم لك عليها ؟

وأطلقت ضحكة مجلجلة حتى لم يسمعا الطرقة الأولى على الباب .

وحين خفقت الضحكة سمعا الطرقة الثانية وانحبست أنفاسهما ، وأرادت مفيدة أن تقوم عن السرير فأمسك بها حسين وأبقاها حتى لا يخرج السرير حساً . وعاد الطرق إلى الباب صافياً واضحاً ، وعاد الصمت إلى الحجرة أشد صفاء ووضوحاً ، وألح الطارق مرة ثالثة ولم يسمع جواباً . وإن كانت الضحكة الأولى ما زالت أصداؤها ترن فى أذنيه . حتى إذا يئس الحاج والى قال فى نفسه أترك له فرصة أن يكون منفرداً ، ونزل السلم والضباب يغطى درجات السلم جميعاً . أهذا كان يربيه ؟ .

أهذا يقدم له المال والعون والأبوة ؟ إن قطع عنه المال أضاع مستقبله ، وإن قدمه .. أيقدم له المال ليزنى ؟ ولكنه يذاكر ، إنه يقدم له المال ليصبح صاحب شهادة ، لا، لن يرده الزنى عن المذاكرة .. أهذا هو الشيخ الذى سيصبح واعظاً ؟ ويتزايد الضباب أمام عينيه .

حين عاد الشيخ والى إلى حسين ، اجتهد ألا يبين أنه فهم شيئا أو سمع ، وقبّل حسين يده ومسح الدمعة المنحدرة ، وعاوده ذاك الشعور بالعجز والاحتقار لنفسه أمام الحاج والى . وقال الحاج :

- كيف حالك يا حسين ؟

- البركة فيك يا آبا الحاج .. الحمد للّه .

- قال لى عبد الحميد أفندى مسعود ناظر المدرسة الإلزامية إنك تنشر شعراً فى مجلة الورود .

- نعم يا آبا الحاج .

- أنا أحب الشعر وأحب الشعراء ، وأنا متأكد أن هذا لا يشغلك عن دروسك .

- لا أبداً .

- أنت فى ثانوية الأزهر هذا العام . أليس كذلك ؟

- نعم يا آبا الحاج . إنى أمتحن الآن .

- طبعاً المذاكرة على قدم وساق .

- طبعاً يا آبا الحاج .

- أتريد شيئاً ؟

- البركة فيك .

- أراك لا تسأل عن الحاجة .. أنسيتها يا حسين ؟

- لا قدر اللّه يا آبا الحاج .. كيف هى ؟

- تسلم عليك .

- أبقاها اللّه .. يا آبا الحاج أنا كنت سأسافر إليك .

- كذا .. إنك منذ سنين لم تزر البلد .

- لا واللّه كنت مسافراً إليك ، لأراك وأرى الحاجة .

ـ ولماذا أيضاً ؟

ـ أريد أن أكلمك فى موضوع .

ـ خيرًا ؟

ـ أريد أن أدخل كلية دار العلوم .

ونظر الحاج والى إليه ملياً وصمت ، وخالجته فكرة ألحت عليه حتى قال :

ـ وتظل بالجبة والقفطان ؟

ـ والله أريد أن ..

ـ مفهوم .. على كل حال يسرنى أن تصبح معلماً .. إن هذا أقرب إلى ما كنت أريده لك . فالواعظ فى رأيى لا يفيد قدر ما يفيد المعلم . المستمع إلى الواعظ يعلم أن وظيفته هى أن يقول هذا الكلام فالاستجابة له لا تكون عادة كاملة . أما المعلم فإنه مع تعليمه للمادة التى يقدمها يعلم الأخلاق بطريقة غير مباشرة ، والأخلاق هى كل شيء يا أستاذ حسين .. أليس كذلك ؟

وأحس حسين النغمة التى غافلت الحاج وتسربت إلى الحديث وقال :

ـ طبعاً .

وأحس صوته منحبساً فتنحنح وعاد يقول :

ـ طبعاً .

ـ بلدنا يحتاج إلى الأخلاق أولا ثم إلى العلم .. بهما نستطيع أن نخرج العدو ونكون وطنا عظيماً . ولكن الأخلاق أولا يا أستاذ حسين .. الأخلاق أولا .

ومسح حسين الدمعة المنحدرة وعاد يتنحنح وهو يقول : طبعاً .. طبعاً .

ـ على بركة الله يا بنى .. وهذا مبلغ يكفى لإحضار حلتين جديدتين ما دمت تريد ذلك .. هيه .. أتركك أنا .

ـ ولماذا العجلة يا آبا الحاج ؟

ـ أريد أن أزور محمدًا .. إنك لا تزور أخاك يا حسين .

ـ أخاف أن أشغله فكلية الطب صعبة يا آبا الحاج .

ـ زره يا حسين فلن يكون لك إلا هو ، ولن يكون له إلا أنت .

ـ أنا آسف يا آبا الحاج .

وخرج الحاج وودعه حسين إلى باب السلم ، وانتظر حتى غاب عن ناظريه ، ثم راح ينظر إلى الجنيهات العشرة التى تركها له ، ثم طواها ووضعها فى جيبه فى عناية بالغة . وانحسر عنه شعور العجز والاحتقار لنفسه.

* * *

يوم انتهى الامتحان اتفق حسين مع أمين كامل الشاعر الذى ينشر معه فى مجلة الورود أن يقيما حفلا خاصاً لهما يدفعان تكاليفه مناصفة ، يشتريان فيه زجاجة من الكونياك ، ويدعوان فتاة يعرفها أمين لا تتقاضى إلا قدراً ضئيلا من المال . وكان حسين في دخيلة نفسه يريد أن يحتفل أيضاً بأول يوم يلبس فيه البدلة ، ولم يجد أنسب من زجاجة كونياك وفتاة أمين احتفالا بهذه المناسبة. وقبل أن يحل موعد الحفلة راح حسين يلبس بدلته الجديدة فى عناية بالغة ، فلبس القميص والبنطلون فلم يلق مشكلات تعترضه ، حتى إذا أراد أن يعقد رباط الرقبة أشكل عليه الأمر وراح يربط ويفك ، أو يربط فتتعقد عليه الأمور ، حتى إذا يئس وضع الرباط على السرير ينتظر مفيدة لعلها ترى حلا لهذه المشكلة ، ولكن طال غيابها فأراد أن يقوم إلى موعده دون رباط الرقبة ، ولكنه تذكر ما سيلاقيه من سخرية أمين فجلس فى موضعه وقد صمم ألا يذهب إن لم ينعقد رباط الرقبة . وفجأة دخلت إليه مفيدة فعاجلها قبل أن تفكر فى موضوع آخر ، فراحت تربط له الرباط كما تفعل لابنها الصغير ، وأكمل هو ملبسه وانتقل من الباب لم يشكرها إلا بقبلة عاجلة .

وحين بلغ شقة أمين وجده جالساً فى بهو منزله وحيداً وأمامه الزجاجة لم تفتح وسأله :

ـ وأين الشغل ؟

ـ فى الداخل .

ولم يتمهل بل اندفع إلى الحجرة الوحيدة فى الشقة ، وكان الوقت فى الغروب والشبابيك مقفلة ، ولكنه رأى كتلة آدمية جالسة على الأريكة فارتمى بجانبها ، ومد فمه يقبّل فاستقبله شعر خشن كثيف وطالعه صوت رجل :

ـ من أنت ؟

ولم ينزعج حسين وإنما مسح دمعته ، وقد أدرك أن الفتاة مع آخر دعاه أمين ، فقال دون أن يفكر :

ـ أنا حسين شحاته ، ومن أنت ؟

وقال الشاب على الناحية الأخرى من الفتاة :

ـ أهلا ، أنا محمود أدهم .

فقال حسين وهو يحتضن مكاناً خالياً من جسم الفتاة :

ـ أهلا فرصة سعيدة .. من سنين وأنا أريد التعرف بك .

ـ ها نحن أولاء تعارفنا ..

وحين خرج الثلاثة من الحجرة ، وجد حسين أن الحفل لم يكن مقصوراً على أربعتهم فقد جاء أغلب كتاب المجلة ، وأعلن أمين أن الحفل مقام لمناسبة إزاحة الجبة عن جثة حسين شحاته . وكان الشعراء منهم قد أعدوا قصائد بهذه المناسبة . وارتجل حسين قصيدة يفخم فيها من شأن نفسه ويهون من أقدار الناس جميعاً إلا هو ، وجرت الكأس والضحكات .

لم يعد زين العابدين بك يستطيع أن يسهر كثيرا ، فكان كلما جاء إلى القاهرة مدعيا زيارة ابنته المقيمة عند جدها يذهب إلى صديقته الجديدة نعمات هشيكة بعد الظهيرة ، فيجلس إليها فى بيتها ثم يصحبها بعد ذلك فى عربة حنطور تجوب بهما الجزيرة ، حتى إذا اقترب المساء سارت بهما العربة إلى الكباريه فيتركها هناك وينصرف هو إلى بيته أو مقهاه .

لم تكن نعمات هشيكة جميلة ، لا ولا كانت فتاة فى مقتبل العمر ، إنما هى بقية من ماض تخلف فى الكباريه متروكة لمثل زين العابدين ليقنع بها نفسه أنه ما زال الفتى الذى كان منذ نيف وعشرين عاما .

وهكذا كانت نعمات قانعة بنصيبها من زين العابدين ، وقد كانت امرأة تحسن الحديث وتستطيع أن تعيد إلى زين العابدين ماضيه صورا من الحديث بعد أن عجز أن يستحضره فتوة وشبابا . فهى تذكره بغزواته مع العراقية ، وسنية شخلع ، وأنيسة ولعة وغيرهن . وتقص ـ ومن القصص ما هو خيال ـ كيف كن يتشاجرن ليحظين بصحبته . ويقول زين العابدين فى نفسه لعل هذا كان حقا ويحاول أن يقنع نفسه أن لعلها لا تكذب ، فإذا عجزت نفسه أن تقتنع راح يلتذ هذا الكذب ويحاول أن يقربه من الصدق فيهمس إلى نفسه ليس من الضرورى أن يكون كذبا لأنه لم يقع ، فإنه كان خليقا أن يحصل على أية حال . ومن أدرانى فنعمات أدرى بدخائلهن وما كان يدور بينهن من حروب وقتال .

ولم تكن نعمات تريد من هذا الحديث إلا إدخال السرور إلى نفسه فهى تعلم أنه يهدى إليها أقصى ما تستطيع ثروته أن تحتمل ، وأنه يقدم لها كل ما

يطيق أن يقدم ، وما كانت تريد أن تشق عليه فى شىء حتى لا ينقطع ما بينهما ، فقد كانت على ثقة أن صلتها بزين العابدين هى خاتمة المطاف فى حياتها الطويلة العريضة فى دنيا الكباريه . فكانت تدرى أنها تنهى حياتها العملية بزين العابدين ، فهى متشبثة به تشبثها بالحياة ، فهى منذ نيف وأربعين عاما لا تعرف لنفسها حياة إلا الكباريه والصديق .

وقد أصبحت فى الكباريه مشرفة إدارية فهى لا تحس أنها أنثى إلا مع زين العابدين ، وإحساسها أنها أنثى هو كل شىء بالنسبة إليها .. كل شىء .. فهى تكاد تثق أن حياتها تنتهى بانتهاء الصلة بينها وبين زين العابدين .

أما زين العابدين فقد كان يدرى أنه لا يملك أن يتعرف بخير من نعمات هشيكة . فأما شبابه فقد ولى وهو يدرى ، وأما ماله فهو لا يكفى إلا ما يستر أمره ، وما دام قد أصبح بلا شباب ولا مال فليس فى العالم خير من نعمات ترد إليه الشباب فى قصصها ، وفيما تمثله من ماضيه وماضيها ، وتبقى عليه المال بعدم مبالغتها فيما تطلب وعدم ضيقها بما يعطى .

كان زين العابدين يصبغ شعره وكان يحس أنه بصبغته هذه يصبغ عجزه ، وهذا التيبس الذى ألم بأطرافه ، وهذه الغضون التى تكاثرت حول عينيه وفى وجهه بل وفى جسمه كله ، بل إنه كان يحس أنه يصبغ الأيام الشاحبة من الشيخوخة ، أياما فى بياض الثلج وجموده كان يجرى عليها الصبغة وينظر إلى المرآة ويبتسم ، وحسبه عند نظره إلى المرآة ابتسامة . لا لم يعد يطمع فى هذا الفرح العربيد الذى كان يتواثب فى نفسه كلما نظر إلى المرآة ، لا ولم يعد يريد هذا الاطمئنان غير المبالى الذى كان يشيع فى نفسه عندما ينظر إلى المرآة ، وهو بطبيعة الحال لم يعد يفكر أن يشعر بهذا الزهو الذى كان يثب إلى قلبه من المرآة .. بحسبه من المرآة ابتسامة . وأحيانا كانت الصبغة ينصل لونها ، فكان زين العابدين يرى الشعرات البيض المتفلتة من الصبغة تلتة

بالشعرات السود ، فكان يفرح من هذا اللقاء . فحبيب إلى نفسه أن يلتقى الشباب بالشيخوخة ولو كان هذا اللقاء فى ألوان ، وإن كان هذا اللقاء مصطبغا تكلف فيه هو الشباب بفرشاة وصبغة وفرضت فيه الشيخوخة نفسها كسنة من سنن الطبيعة وفترة من فتراتها . ولكنه كان يفرح على أية حال ويداعبه أمل ، مجرد أمل أن تهب إليه من شبابه نسمات ، أو نسمة من حين إلى حين مهما تباعد ما بين هذا الحين وذاك الحين .

كانت القاهرة تودع الشتاء ، وكانت النسمات تهب بعيد الظهيرة حانية هينة المسرى كأنها تصل بين شتاء بارد تودعه القاهرة وصيف قائظ تستعد لاستقباله ، أو كأنها بشائر من الربيع أرسلها كما يسبق الحراس المواكب . واستقبل زين العابدين عربة ذات حصانين يبدو بوضوح أن أحدهما ذكر والأخرى أنثى ، كما يبدو بوضوح أنهما تزاملا فى هذه المهنة فترة طويلة من الزمان فبينهما هذه الألفة المفروضة بين زميلين قديمين ، فلو أطلق كلاهما لعانق كل منهما ذراع الآخر فى حنان الآدميين الذين تقدمت بهم السن ، ولم يعودوا ينتظرون من المستقبل إلا أن يستعيدوا معًا ذكريات من الماضى الطويل . وكان سائق العربة رجلا فى فتوة الشباب عريضا ضخما لا يعبأ كثيرا بما بين الحصانين من ألفة وتواد ، بل إنه حتى لا يرعى حرمة الذكر أمام أنثاه ولا رقة القلب فى معاملة الأنثى ، فهو يسوط كليهما فى حركة يأتيها عفوا كأنها جزء من واجبه ، وبشكل يقطع أنه لا يكنّ كثير رحمة لزميليه فى العمل ولولاهما ما كان له عمل . من اليسير أن يدرك من يراه أنه اشتراهما منذ قريب وأنه قد دفع مقابلهما ثمنا لا يستحقانه ، وهما على ما هما عليه من تقدم فى السن لم يكن صاحب العربة رحيما على الحيوان الأبكم فيهما ، كما لم يكن رحيما على كبر السن الذى يمثلانه ، وإنما كان يثأر للعرق الكثير الذى بذله فى سبيلهما .

وكأنما كان الحصانان يرجوان أن يجدا في شيخوختيهما شيئا من الراحة أو شيئا من التوقير على الأقل ، فحين لم يجداه من صاحبهما الجديد راحا يفرضانه فرضا بمشية وانية غير عاجلة ولا مبالية بهذه السياط التي تنهمر عليهما ، وكأنما يريدان أن يقولا لكم عرفنا أمثال هذه السياط ولكنك في آخر المطاف مضطر أن تقدم إلينا أوفر الطعام وأحسن العناية وإلا حرمناك رزقك جميعا ، فللشيخوخة تجربتها وفائدتها في كثير من الأحايين .

وهكذا سارت العربة في هدوء على الرغم من صخب السائق . وزين العابدين يحاول ما وسعه الجهد أن يملأ فراغ المقعد في العربة بجسمه ولكن هيهات له أن يستطيع فقد ضمر جسمه مع الأيام ، ألم تضمر أيامه أيضا ؟ ولكنه لا يريد أن يصدق الضمور في جسمه أو في أيامه ، فهو يتوسط المقعد ويضع يدا على يمين ويدا على يسار ، ويفرج ما بين رجليه قدر ما يستطيع ، واضعا عصاه على الكرسي الصغير المقابل له ينظر إلى الذين يمر بهم يكاد يسألهم ماذا ترون ؟ ألا ترون شبابا وهذه الورود الحمراء ألا تصنع لي شبابا ؟ وهذا الشعر الفاحم ، فما الشباب إن لم يكن كذلك ، وتمر به الأعين فتبتسم حينا أو تعبره كظاهرة تعودت أن تراها فما تحس فيها جديدا .

ووقفت العربة عند بيت مهترئ القسمات حاول أن ينتحر فعاجله صاحبه بالإسعاف ، ونصب له مساند من الخشب تأخذ الطريق على من يريد السير على الطوار ، حتى ليخيل لرائيه أنه عجوز مال على ذراعه فنام واستقرت به الحال في نومته ، أو لعله يذكر آخرين بواحد من أهل الكهف أصابته نوبة الإغفاء وهو مستند على ذراع له ، ولكنه كان عند زين العابدين بيت نعمات ، وكان عند نعمات المأوى الذي تلجأ إليه في زمان تولى وشيخوخة تسارع إليها الخطو .

طلب زين العابدين من السائق أن ينتظر ، فأمر السائق الخيل بدوره ألا تتحرك وألحق أمره بسباب كثير ، والتفت إليه الحصان الذكر والغمامة على عينيه ، ثم التفت إلى زميلته ومسح شفتيه بلسانه ثم استكان . ونزل زين العابدين من العربة ونفض الشارع بعينيه كأنه مقدم على مغامرة ، حتى إذا اطمأن إلى خلو الطريق دلف إلى الباب المختفي بين الأعمدة التي تسند البيت.

ولم يطل غياب زين العابدين وعادت معه نعمات ، وقد ارتدت فوق ملابسها معطفا جديدا اشتراه لها زين العابدين منذ قريب .

كان وجه نعمات مختفيا وراء كثير ، ولكن لم يكن الحجاب من الأشياء التي كان يحتجب وراءها الوجه .

وسارت العربة وقبل أن ينطق زين العابدين التفت إليه السائق نصف التفاتة وقال :

ـ الجزيرة ؟

وقال زين العابدين في مرح :

ـ تعجبني .

واتجهت العربة إلى الجزيرة ، وقال زين العابدين :

ـ أنت اليوم قمر .

وقالت نعمات وقد ابتسمت عن أربع أسنان ذهبية ، وعن تجاعيد كثيرة حول فمها :

ـ اليوم فقط يا عمر ؟

ـ وكل يوم وشرفك .

ـ أين كان هذا ، كنت لا تسأل عنا أيام سنية شخلع . اللّه يرحم أيامها .

ـ أنت التي كنت منصرفة عنا .



ـ وهل كنا نتوصل ؟

ـ أيام .

ـ ألا تعجبك أيامنا هذه ؟

ـ حلوة والنبى حلوة يا نعنع .

ـ أراك تتحسر على سنية .

ـ أنت أنسيتنى الكل .

ـ يا ترى صحيح ؟

ـ والنبى صحيح .. صحيح والنبى .

ـ كنت أيام سنية ..

وراحت تعيد على مسمعيه أيام مجده وهو يزداد انتفاخا بجانبها ، وينظر إلى المارة يكاد يستوقفهم ليسمعوا ما يسمع وقد تسرى فى داخله فى لحظة عابرة همسة تقول كذب ما تسمع ، ولكن سرعان ما يكتم هذه الهمسة فإن الحقيقة كئيبة عندما يحلو الخيال ، وعلى كل حال ما أقرب الواقع من الخيال، وعلى كل حال هو مبتهج يكاد يطير من البهجة . نسى الشيخوخة والصبغة، ونسى الحقيقة لم يعد يذكرها ، لم تعد الحقيقة عنده إلا هذا الذى ترويه نعمات ، ووقائع تشركه هى فيها فى جرأة ودربة ومران ، وهو لم يفعلها .. أو لا يذكر أنه فعلها .. بل إنه يكاد يذكر أنه فعلها .. بل إنه واثق أنه فعلها وأنها الحقيقة هى الحقيقة .. وتسير العربة .

ويصل موكب الذكريات والأساطير إلى الجزيرة ، تمر العربة بعربات أخرى وتمر بسيارات ، والذكريات تنهمر وزين العابدين فى نشوة هيهات أن تبلغها نشوة الخمر مهما تتزايد ، وينظر زين العابدين إلى العربات والسيارات لو استطاع أن يصرخ فيمن بها : أتعرفون أنتم الحب والشباب ؟ تعالوا فانظروا

كيف كنت ، بل فانظروا كيف أنا إلى الآن . ويزداد إنعاما فى العربات والسيارات الواقفة يرميها بنظرات محايدة ليس لها معنى ، وتسير العربة .

ولكن العربة تبلغ سيارة مكشوفة ، ويقول زين العابدين فى نفسه ، مكشوفة .. أليس لها غطاء ، وينعم النظر ثم ينتفض انتفاضة مجنونة ويعود ينظر ، إنها هى . ويقول :

ـ بنتى ؟؟

ويخيل إليه أنه قالها فى نفسه لم تنطق بها شفتاه ، وما درى أنه صرخ وراح السائق يحث الخيل على العدو ، وهى تأبى إلا أن تسير ، وأمسكت نعمات بملابسه ذاهلة لا تدرى ماذا تفعل أو تقول :

ويقول زين العابدين ذاهلا :

ـ قف .. قف يا أوسطى .

وتقول نعمات :

ـ ماذا تريد أن تفعل ؟

ويرد السؤال الرجل إلى بعض العقل ، وإن كان جسمه قد أصبح مرجلا يغلى ، ويلتفت إلى نعمات فتطالعها منه نظرة ذاهلة حائرة كسيرة مخذولة ، وتعيد سؤالها :

ـ ماذا تريد أن تفعل ؟

ويقول فى حيرته الذاهلة :

ـ خذى .

ويخرج من جيبه جنيها .

ـ خذى هذا وامشى أنت .. نعم اتركى العربة .

وتنزل نعمات إلى الطريق تبحث عن عربة ، وينظر زين العابدين إلى السائق يقول له فى استجداء آمر :

- انتظر أنت .

ويقصد إلى آمال جالسة مع شاب في المقعد الخلفي من سيارة مكشوفة غير عابئ بناهد في السيارة نفسها ، وفي ثورة مكبوتة يضع يده على ذراع ابنته التي كانت مسترخية على جانب السيارة ، وكأنما وجدت ثورته انفجاراتها في تشبثها بذراع ابنته ، ولم يقل شيئا إلا :

- قومى .

وانتفضت آمال .

- بابا !!

وقال مرة أخرى في نفس الثورة :

- قومى .

وفي لحظة كان ركاب السيارة منتشرين حولها ، وكانت آمال مجرجرة إلى العربة المنتظرة . وسارت العربة .

وقال زين العابدين للسائق :

- إلى محطة مصر .

وانتظر القطار ساعة ونصف الساعة لم يقل كلمة واحدة ، بل حتى لم يعد يفكر ، إنما كل ما سيطر على ذهنه أنه يريد أن يذهب إلى بيته في قرية الحمدية ، ولا شيء آخر .

وحين حل الموعد انتزع ابنته الصامتة بدموعها التي تنثال على وجنتيها وركبا ، وسار القطار .

(٢٥)

لم تكن عزيزة جميلة ، وإنما هي شفتان غليظتان ، وشعر أرغم على الاستواء إرغاما ، فهو مفتول في نهايته بأسطوانة تبقى عليه استواءه . وهي ذات عينين ضيقتين وآمال أشد ضيقا من عينها ، لها قصة تكررت حتى لتكاد تصبح من كثرة تكرارها كأعمال الحياة اليومية التي لا تستحق الرواية ، كانت خادمة ، وكان في البيت مراهق . وحين اضطرتها الحقيقة المتخفية في أحشائها أن تعلنها ذهبت إلى المستشفى ودفع أبو المراهق النفقات في كرم ، ثم أعطاها أيضا عشرين جنيها ثمن سكوتها وشرفها في بيعة واحدة ، وكان لا بد لها أن تقبل فإن البضاعة التي باعتها لا يقبل شراءها إلا هذا الذي اشتراها، فهو محتكر للصنف . وكانت لن تجد هذه الجنيهات العشرين على أية حال ، فقبلت ما عرض عليها . وقبل أن تخرج من المستشفى كانت إحدى الممرضات قد عرفتها بسيدة أخرى تتاجر وبضاعتها اللواتي بعن شرفهن كعزيزة ، وانضمت عزيزة إلى المعروضات في بيت الحاجة نبوية . وكانت الحاجة نبوية قاسية في معاملتها لبضائعها ، ولكنها ـ والحق يقال ـ كانت تسافر في كل عام إلى الحجاز تلقي بأحمالها من ذنوب التجارة والقسوة جميعا ، ثم تعود إلى القاهرة بقلب متهيىء لكل ما تعودت أن تمارسه من أعمال.

وهكذا لم تصبر عزيزة طويلا على الحاجة ، فسرعان ما أقامت تجارة حرة وحدها ، وبعد أن همست إلى زبائنها بمكانها الجديد ـ جمعت ملابسها إلى هذا البيت الذي تستقبل فيه زبائنها القدامى ومن استجد منهم بعد ذلك ، غير مغالية في الثمن فقد كانت تدري أنها ليست جميلة .

ولم تكن تجارتها رائجة فقليل من كان يعرفها ، وقليل هذا الذى يدفعه من يعرفونها ، فهم فى أغلب الأحيان طلبة فى الجامعة ممن لا يحبون أن يلتقوا بتلاميذ الثانوى فى الأماكن العامة .

وكان محمد فى يومه هذا ضيقا أشد الضيق بحياته جميعا . فهو متزوج وغير متزوج فى وقت واحد . وهو على كرهه لزوجته يحس أنه بحاجة إلى إنسان . لا لم تكن الوحدة إنما هو يحس أنه ضائع غير وحيد ، نعم إنه ضائع . هذا هو التعبير الذى أحس بصدقه حين نبت كالهمس فى نفسه .

ضائع لا يدرى لماذا ؟ لم يكن وهو بجانب أبيه يحس الضياع ولم يكن وهو بجانب زوجته يحس الضياع ، وإن أحس الضيق لها والكره ولكنه لم يكن يحس الضياع ، أما الآن فأصدقاؤه كثيرون ، ولكن ليس بينهم من يستطيع أن يجد فيه أباه أو هنية .

هل أريد أبى حقا ؟ ألم أكن أضيق بتسلطه وفرضه رغباته دون أن تكون لى فرصة أن أقول ما أريد ، فإذا أنا آخر الأمر لا أرى إلا ما يرى ، بل ولا مستقبل إلا ما يرسم . فهأنذا وحدى أخط مصير نفسى بيدى ، أى مصير لماذا لا أموت ؟ ماذا تخسر الدنيا إذا مت أنا ؟ ، أنا فى كلية الطب، ولن يستطيع طالب فى كلية الطب أن يصبح مهندسا أو محاميا . زوجنى ممن أراد هو ، وجاء ابنى يؤكد هذا الزواج ويثبته إن كان فيه مجال لشك ، فماذا بقى لى من مصيرى لأخطه .

وقادته قدماه إلى عزيزة واستقبلته استقبال زبون قديم ، وقال لها بعد حين:

ـ أريد أن أعرض عليك موضوعا ..

ـ تفضل .

ـ هل أنت مشغولة كل أيام الأسبوع ؟

ـ على حسب ..

ـ طيب ، هل أنت مشغولة طول اليوم ؟

ـ على حسب أيضا ..

ـ اسمعى ..

ـ هه .

ـ أريد ..

ـ قل ماذا تريد ؟

ـ لا .. لا شيء ..

ـ اسمع ياسى محمد .. نحن نسمع الكثير .. الزبائن لا تجد مكانا أحسن من عندنا لإفراغ كل ما عندهم .. قل .. أنت مثل أخى .. إن لم أستطع أن أريحك فأنا لا أستحق أن تعرفنى ..

ـ لا ، لا شيء والله إلا أننى لا أدرى لماذا أحب أن أجلس إليك .

ـ صحيح ؟!

ـ أحب أن أجلس إليك ..

ـ أهلا وسهلا ..

ـ أنت الوحيدة التى أستريح إليها .. أنا اخترتك أنت من بين كل اللواتى عرفتهن .. أنا الذى اخترتك بمزاجى أنا .. بكيفى .. فأنا أريد ..

ـ قل يا سى محمد .. قل ولا تخجل ..

ـ أحب أن أجيء إليك كلما أمكننى ذلك .. وأجلس إليك مجرد جلوس ولن أعطلك .

ـ يا أخى تفضل . أهلا وسهلا ..

ـ مسألة الفلوس .. ؟

ـ لا .. لا تتكلم فيها يا سى محمد .. لا تتكلم فيها .. يا سلام .

ونظرت إليه نظرة طويلة .. فتى فى ريق الشباب طويل القامة أسمر الوجه، ذو عينين كالمرآة تعكسان ما يسقط عليهما من نور . ولكنهما لا يشعان من داخلهما نورا ، يبدو عليه أنه كجهاز للاستقبال اللاسلكى .. ولكنه لا يصلح للإرسال .. يضحك إن سمع ما يضحك ويحزن إن سمع ما يحزن ، ولكنه لا يثير الضحك أو الحزن فى أحد . ولهذا كان أصحابه يحبونه .

وقالت عزيزة :

ـ أنا أيضا يا سى محمد لا أجد راحة عند أحد كما أجدها عندك .. أحس وأنت تسمعنى أنك فعلا مهتم بما أقول ، الآخرون لا يسمعون ما أقول ..

ـ لماذا لم تطلبى منى أن أجىء للجلوس إليك ؟

ـ خشيت أن تظننى أريدك أن تأتى لمجرد دفع الفلوس .. أنت متزوج يا سى محمد .

وقص عليها محمد كل ما كان يكتمه عن الأصدقاء الأقربين .

(٢٦)

كان زين العابدين يجلس فى غرفة الاستقبال بمنزله وحوله رهط من أعيان القرية بينهم الحاج والى ، وكان القلق يسيطر عليهم جميعا فقد كان الراديو يذيع أنباء الحرب في ثورة محمومة امتدت من أوربا فشملت العالم أجمع بلغت قرية الحميدية .. وزين العابدين والحاج والى ، وهذا الرهط الطيب الذى لا يتصل له سبب بالحرب إلا أن ينزعج ، ويسيطر عليه هذا القلق الآخذ الوبيل.. النفوس منهم هالعة لا تدرى ما المصير فى الغد .. والأيام المقبلة كلها مغلفة بدخان قاتم من نيران الحرب ، كل فرد منهم ينظر إلى غده فى ذعر ، تختلف بينهم أسباب الذعر ولكنهم جميعا متفقون على الذعر والقلق والترقب للغد الكالح المغبر المستخفى فى أطواء الدخان ، وأصوات الطلقات، وآهات الصرعى ، وضجيج الجنون ، وصراخ المطامع ، تغشيها الدعاية ، ويهتك عنها الدمار أستار الخداع .

الراديو يكاد ينفجر من هول ما يذيع ، وزين العابدين والحاج والى والرهط الآخرون صامتون لا يتحرك لسانهم بكلمة وإن ثارت فى نفوسهم ، لا ليستمعوا فحسب وإنما لأنهم وجدوا من الصمت ستارا يخفون وراءه القلق الراعد بين جنوبهم .. وانتهى المذيع من أخباره وشمل الصمت الكون أجمعه حولهم لحظات وظلوا هم فى دوامة من صمتهم ، وما لبث الراديو أن عاد إلى الحديث مرة أخرى : « تسمعون الآن « أغنية الأمل الضائع » شعر حسين شحاته غناء نجوى مصطفى » ، ولم يكن الحاج والى يتوقع أن يسمع اسم ربيبه مذاعا وشعره غناء ، فأحس كأن الدنيا حوله تهنئه ، وسرعان ما تصاعد الضباب أمام عينيه ، ثم راح ينجاب طبقة بعد طبقة حتى لم يبق إلا

غلالة رقيقة من الضباب .. وجاءت الأنغام وواكبت الأبيات اللحن ، ونظر الحاج والى إلى زين العابدين والآخرين فوجدهم ناظرين إليه وعلى فم كل منهم ابتسامة كأنه يهنئه بها ، وأنعم النظر إلى الوجوه وقد راحت موجة الذعر تنحسر عنها شيئا فشيئا فهم ينعمون بما يسمعون ، بل إن بعضهم يمصمص شفتيه ، وأخر منهم يقول « اللّه ، اللّه » !! وزين العابدين يهز رأسه ، وأصبحت الغرفة ألحانا وانحسر عن هذه الحجرة من العالم قلق الحرب المروع ، فالنفوس ترف مع النغم ، والقلوب تتفتح للآمال وتسترجع الذكريات ، والدنيا ــ هنا في هذه الحجرة ــ دنيا ودود فيها حب وفيها متعة وفيها سرور وعلى الأرض .. من هذه الحجرة السلام .

وانتهت الأغنية ، وراح الحاج والى ينظر إلى زين العابدين ينتظر منه أن يقول كلمة . وقالها زين العابدين آخر الأمر ..

ــ الشعر هائل يا حاج والى ..

وتصاعدت بعد هذه الجملة أحاديث الإعجاب من الجالسين ، وأحس الحاج والى نفسه الصدئة تنقع فى السعادة ، ودار الحديث بعد ذلك عن الأغنية والشعر ، وفكر الحاج والى ــ وهو فى دوامة الفرح ــ كيف أصبح الحديث مشرقا وبهيجا بعد أن كانت ريح الحرب القاتلة هى التى تسيطر عليهم . وأحس الحاج والى أنه يريد أن يصبح وحيدا فهو يستأذن ويقوم إلى الطريق المنفرد من القرية . إلى الليل .. ليل القرية الذى يشيع الوحدة فى النفس بصورة يعجز عنها فى أى مكان آخر .. ومشى الحاج والى لا يسمع إلا أنفاس الليل ، حتى لقد نفت مسامعه عنه صرير الصراصير ، ونقيق الضفادع ونباح الكلاب ، فليس ثمة من حوله إلا أنفاس الليل فى القرية ، وتلك الرائحة التى تنتشر فى أمسيات الريف .. رائحة الأعشاب الخضراء وهى تحترق ، اختلطت برائحة الندى ، وقد استقر على أوراق الشجر .

وكان الحاج والى وهو سائر يشق سحابات من الضباب لا يدرى أهى التى تعود أن تتراكم أمام عينيه ؟ أم أنها سحابات آتية من العشب الأخضر المحترق ؟..

نعم إن حسين لم يعد يسأل عنه ، وهو منذ حصل على مرتب من وظيفته قطع ما بينهما قطيعة توشك أن تكون كاملة .. نعم إن حسينا عرف مرات كثيرة بمرض الحاجة بمبة وبمرض الحاج والى فلم يكلف نفسه عناء خطاب يرسله ..! ونعم إنه لا يزور حتى أخاه فى القاهرة . ولكن مهما يقطع حسين ما بينه وبين الحاج بل ما بينه وبين أخيه فإنه لا يستطيع أن ينكر أن الحاج والى هو الذى جعل منه هذا الإنسان الذى يذيع الراديو اسمه وتغنى له المطربات ، لا مهرب له من هذا وإن جهد هو أن يهرب من ماضيه ..

وماذا كنت أريد منه ؟.. فليأخذ طريقه فى الحياة موفق الخطوات .. فلا والله ما تمنيت عنده شيئا .. ولا السؤال .. لا ولا السؤال !! يكفينى منه أن يسعد الناس مثلما أسعد اليوم زين العابدين بك ومن كان معه ، ومثلما أسعدنى .. نعم لقد أسعدنى ..

ومضى الحاج والى يشق الضباب ورائحة العشب الأخضر المحترق المختلطة برائحة الندى تلاحقه ، غير ملتفت ولا عابئ بصرير الصراصير ، ولا بنقيق الضفادع ، أو نباح الكلاب .

أنهى محمد دراسته فى كليه الطب وعيِّن فى قصر العينى وانقطعت صلته نهائيا بعزيزة دون أن يكون له أو لها يد فى هذه القطيعة ، فقد تدخل بينهما هتلر من ألمانيا وتشرشل من إنجلترا فقطعا الصلة بينهما . توافد الجنود الإنجليز وأصبحت عزيزة شخصية مرموقة فى دنيا الليل ، وتفرغت لهؤلاء الزبائن تجيب طلباتهم ، وتخلت عن أصدقائها القدامى مرغمة على ذلك إرغاما ..

وعاد محمد إلى نفسه وحيدا .. رفيقته الجديدة سماعة يعلقها على رقبته فرح بها يوما ، وأسبوعا ، وشهرا ، ثم أحس بها طوقا حول عنقه يحيط به يوشك أن يخنقه وعاد ضائعا ، فرح بنفسه وهو يمر بالمرضى كإله صغير يشخص المرض ويصف الدواء يوما وأسبوعا وشهرا ، ثم اكتملت الصورة فى ذهنه .. إنه بهيم يدور فى ساقية ، والسماعة حول عنقه هى النير على رقبة البهيم . نعم هو بهيم ، بهيم منذ أدرك الحياة .. سحبه أبوه من أنفه حتى تخرج فى كلية الطب ، واليوم يسحبه المرض والمرضى ممسكين بسماعته يوجهونه بها أنى يشاؤون .

أريد أن أفعل أنا شيئا .. أريد أنا أن أفعل شيئا .. وكأنما وجد ضالته فى زوجته .. تذكر فجأة أنها ما زالت زوجته .. لماذا ؟

ولم يكلفه الأمر كثيرا . ورقة الزواج فى يده .. فما هى إلا جلسة عند المأذون الذى تكفل بإحضار الشهود حتى كانت زوجته طالقا .. ووضع ورقة الطلاق فى خطاب إلى أبيه وبات ليلته غير متزوج . فكر لحظة فى ابنه أحمد.. وسرعان ما همست له نفسه : « البركة فى الحاجة » .

وانقضى الزواج ..

وأحس أنه صنع شيئا .. ولكنه ما لبث أن عاد إلى السماعة والمرض والمرضى .. وما لبث أن عاد ضائعا ..

* * *

سمع حسين بطلاق أخيه فقد كانت أنباء البلدة تأتيه بانتظام من صديقه حمدى . وعاود حسين الأمل القديم أن يتزوج هنية .

لماذا ؟ لا أدرى ؟ كيف هى الآن ؟ لا أدرى ؟

أمل قديم طالما كنت أهفو إلى تحقيقه ؟ كان الزواج بها مكانة أتطلع إليها.. وكنت أتطلع أيضا إلى أن أصبح شيخا ذا عمامة وقور . وأنا اليوم أحاول أن أنسى العمامة ما وسعنى الجهد ، وكنت أرجو أن يسألنى الناس الفتوى .. فأين أنا الآن من الفتوى ؟ ، وكنت أرجو أن تأتى هنية هذه بالذات فتقبل طرف الجبة وتسألنى فى شؤون دينها ؟ فأجيب .. فأين أنا الآن من هذا جميعه ، ولكنى أريد أن أتزوجها .

قد يقبل أبوها .. ولكن ماذا يقول الحاج والى ؟؟

وطلب حسين إجازة من المدرسة وقصد إلى قريته التى فارقها منذ سنوات بعيدة .. ونزل إليها .. غريباً نزل .. لم يعرفه أحد ولم يعرف هو أحداً . الفلاحون وجوههم ليست غريبة عنه وهى غريبة ، يعرف السمات ولا يعرف الأسماء . ويعرف الرائحة التى تهب عليه مختلطة بأنفاس القرية ، فتعود إلى ذهنه ذكريات يدفعها عن نفسه باذلا غاية الجهد ألا تعود هذه الذكريات .. لا ، لايريد ، لايريد إلا هنية .. ثم يعود إلى القاهرة هناك حيث يضيع فى الزحام الكبير ، ويكتب شعراً ويصادق من يجد عندهم نفعاً حتى ينتهى هذا النفع فتنتهى الصداقة .

مشى حسين في القرية يرد عن نفسه الذكريات التى تتواكب عليه من أشجارها ، من تلالها ، من طرقها ، من بيوتها ، بل من سمائها ، ومن أنفاسها، ومن رائحة أعشابها وزرعها .

لم يقصد إلى بيت الحاج والى ، لا ولا إلى بيت جده وإنما قصد إلى بيت أبى هنية .. فما كان يريد إلا هنية ..

قال لأبيها :

ـ أتذكرنى يا عم عبد الحميد ؟..

وتفرس فيه عبد الحميد لحظات قليلة ثم قال :

ـ الشيخ حسين ؟.. كيف أنت يا شيخ حسين ..

ـ اللّه يطيل عمرك .. عرفتنى بعد هذه السنين الطويلة ، وبعد أن غيرت بالعمامة الطربوش .

ـ كيف أنساك يا شيخ حسين ، وأنت من بلدى .. كيف حالك ؟

ـ الحمد للّه .

ـ نسمع أغانيك فى الراديو .. كلامك حلو واللّه يا شيخ حسين ..

ـ اللّه يكرمك يا عم عبد الحميد ..

وصاح عبد الحميد من مكانه :

ـ القهوة يا هنية ..

وقال حسين فى تظاهر باللعثمة :

ـ أسفت واللّه لما حصل من أخى !!

ـ كل شىء قسمة ونصيب يا سى الشيخ ..

ـ يا ترى يا عم عبد الحميد لو أردت أن أصلح ؟؟

ـ حد اللّه بيننا وبين محمد يا شيخ حسين .. هو الآن دكتور ونفسه كبرت علينا .. يا ابنى أرأيت عمرك زوجاً لا يقيم مع زوجته ؟ ثم لا يكتفى

بهذا بل يطلقها أيضاً ولايفكر فى ابنه الصغير .. لا .. لا يا شيخ حسين .. حد الله بيننا وبين محمد ..

ـ أنت لم تفهم قصدى يا عم عبد الحميد ..

ـ خيراً ؟

ـ أنا أريد أن أخطب هنية لنفسى .. أنا مدرس ومرتبى ..

ـ انتظر يا ابنى .. أنت تريد أن تتزوج طليقة أخيك ؟

ـ ما أحله الله لا يحرمه العبد يا عم عبد الحميد ..

وسكت عبد الحميد مطرقاً ، وأمعن التفكير ثم قال :

ـ هل سألت الحاج والى يا شيخ حسين ؟

وأرتج على حسين فما كان ينتظر هذا السؤال .. ثم قال متلعثماً :

ـ أردت أن أسألك أولا ..

ـ لا يا ابنى .. فهنية لاتزال أم ابنهم ، والحاج والى تأثر مما فعله ابنه .. تأثراً كبيراً .. وهو يبر البنية حتى اليوم ، ويأتى لزيارتها دائماً ويسأل عنها .. وأنت على كل حال يا شيخ حسين ابنه .. لا ينكر المعروف إلا ابن الحرام .. أنت ابنه يا شيخ حسين ..

وقال حسين مسرعاً ..

ـ طبعاً ، طبعاً يا عم عبد الحميد .. وهل أستطيع الإنكار ؟ !

ـ اسأله أولا يا ابنى .. اسأله أولا ..

ودخلت هنية حاملة القهوة .. ونظر إليها حسين .. إنها ليست هى .. لا ، ولا هى التى تصور أنه سيراها . ولكنه مع ذلك مصمم على الزواج بها .. لماذا .. ؟

لا يدرى لماذا ؟

* * *

حين دخل حسين إلى البيت الذى ربى فيه استقبله البيت برائحة الفرن التى لم تتغير .. وبرائحة الذكريات التى مازالت تطالعه منذ نزل إلى القرية . إلا أن رائحتها هنا فى هذا البيت كانت أشد عنفاً كأنما هذا البيت هو المصدر الذى توزعت عنه الذكريات إلى القرية جميعاً ..

أحس حسين الخوف يسيطر على قلبه لا يدري لماذا .. ومد يده إلى عينه اليسرى يمسح الدمعة المنحدرة . وتوقف فى صحن الدار يقلب النظر يحاول أن يستعيد بعض شجاعته ، ولكن الخوف كان يهاجمه فى قسوة .. خوف لا يدرى مأتاه ولا أسبابه وإنما هو رعشة فى القلب ، وبرودة تتمشى فى أوصاله . وتنحنح وتردد صدى نحنحته فى البيت جميعاً ثم عاد يمسح دمعة لم تكن موجودة وراح يدير عينيه مرة أخرى حواليه .. ثم خطا خطواته الأولى ، وصعد السلالم .. ثقيل الخطوات حتى إذا بلغ منتهاها وجد الحاج والى جالساً على أريكته لم يغيرها ولم يغير جلسته عليها .. كأنه كان جالساً ينتظره عائداً من الكتاب . أو كأنه ظل جالساً هذه السنوات الطوال لم يتحرك من مكانه . وغير بعيد منه على الأرض جلست الحاجة بمبة تلاعب طفلا أدرك من فوره أنه أحمد بن محمد .. وإن خيل إليه للحظة عابرة أنه محمد نفسه .. ونظر الحاج والى ونظرت الحاجة بمبة ودون أن يشعرا ارتسمت ابتسامة مرحبة على شفاههما وهمهما بألفاظ لم يكن حسين يحتاج إلى كثير ذكاء ليدرك أنه ترحيب يجمع إلى الدهشة الصدق والحب ، وقبّل حسين يد الحاج والى .. ثم ركع على الأرض يقبّل يد الحاجة ، وسحبت يدها لتربت ظهره فى حنان .. وراح الكلام يسيل من شفتيها :

— أوحشتنى يا حسين .. أسمع كلامك فى الراديو ، وأقول لنفسى و اللّه ربيت ونفعت .. وأشتاق إليك ..

وأسعفت الدمعة من العين اليسرى حسيناً فلم يمسحها ، وأحس أنه يحتاج إليها .. فقد كانت عيناه عاصيتين عن دمعة تأثر .

ولم يزد الحاج والى عن قوله :

ـ كيف أنت يا حسين ؟..

ـ الحمد الله يا آبا الحاج .

ثم التفت الحاج إلى زوجته :

ـ جهزى العشاء لحسين يا حاجة ..

ـ من عينى .

وقامت وأمسكت أحمد من يده وخرجا ، ولم يكن يخفى على الحاج أن حسيناً يريد أمراً ولكنه آثر ألا يسأله ، وإنما راح يسأله عن عامة شأنه فينقطع الحديث بإجابات تقليدية :

ـ كيف حال المدرسة ؟

ـ الحمد الله .

ويهوم الصمت ..

ـ أما تزال فى بيتك ؟

ـ لا .. نقلت إلى شقة .

ويهوم الصمت .

ـ أغانيك حلوة يا حسين .

ـ الله يبقيك يا آبا الحاج .

ـ اشتريت راديو خصيصاً لأسمع أغانيك ..

ـ الله يبقيك يا آبا الحاج .

ويهوم الصمت .

ويفكر الحاج فيما يمكن أن يكون سبب مجيء حسين ، ويفكر حسين فيما يمكن أن يكون فاتحة الحديث الذى يريد أن يسوقه .. ويرتفع صراخ أحمد لحظة ثم يظللهما الصمت مرةً أخرى فتعلو أصوات الضفادع والصراصير والكلاب ، ويتنحنح حسين ثم يقول فى صوت متسلخ :

ــ أبا الحاج ..

ــ نعم يا ابنى .

ويرفع حسين يده إلى عينه الدامعة :

ــ أريد أن أعرض عليك أمراً ..

ــ قل يا حسين .

ــ أريد أن أتزوج ..

ــ على بركة الله يا ابنى .. ومن العروس ؟

وفى سرعة يقول حسين :

ــ هنية .. !

ويعتدل الحاج والى فى جلسته ويلقى إلى حسين نظرة داهشة :

ــ من ؟

ــ هنية ؟

ــ امرأة أخيك ؟ !

ــ طليقته .

ــ لماذا ؟

ــ أريد أن أصلح ما فعله أخى ؟ !

ــ هل تحبها ؟

وصمت حسين لحظة وتنحنح وقال :

ــ ماذا ؟

ـ هل تحبها ؟

ـ نعم .

ـ هل تحبها حقيقة يا حسين ؟

ـ نعم .

ـ هل تحب أحداً يا حسين ؟ !! هل تحب أحداً على الإطلاق ؟

ودهش حسين من السؤال .. فاستغلق عليه الحديث هنيهة ، ثم قال وكأنه لم يسمع :

ـ نعم ؟

ـ أقول ! هل تحب أحداً على الإطلاق ؟؟ .. هل تعرف الحب ؟ نعم أنت شاعر .. تقول الشعر فى الحب والغرام والهيام ، ولكن هل تعرف الحب يا حسين ؟

ـ يا آبا الحاج أنا مقصر ، ولكن معروفك ومعروف الحاجة لا ينسى ..

ـ أنا يا ابنى لا أسأل عن المعروف إنما أسأل عن الحب ، هل تعرف الحب يا حسين ؟

وتنبه حسين إلى نفسه وكأنما جعله السؤال يحس أنه إنسان ناقص .. ينقصه الحب . وأطرق ثم قال :

ـ إذا أمرت ألا أتزوج هنية .. فأنا طوع أمرك..

وصمت الحاج وواصل حسين حديثه ..

ـ إنها شابة ، وستتزوج ، وأنا أولى من الغريب .. !

وأطرق الحاج بعض الوقت ثم قال فى لهجة من يريد أن ينهى موضوعاً :

ـ اعمل ما تريد يا ابنى .. اعمل ما تريد .

ـ كتر خيرك يا آبا الحاج .

ثم أطرق دون أن يحس فرحاً ولا حزناً ، ومسح الدمعة عن عينه ولاذ بالصمت ، وارتفع صوت الضفادع والصراصير والكلاب ..

(٢٨)

أنهى محمد فترةَ التمرين بقصر العينى وعيّن طبيباً بالمستشفى الأميرى بالزقازيق .

واستقبل أمر تعيينه في غير رضا ولا فرح .. فما كان يريد أن يكون قريباً إلى يد أبيه الذى خطط له مستقبله ، وما كان يريد أن يكون فى البلدة التى شهدته طفلا وفتى .. إنه يريد أن يبتعد .. يبتعد ليشق لنفسه ما بقى من طريق ، يريد أن يختار أصدقاءه ، ويختار حياته كما يشتهى . أى موظف أحمق فى وزارة الصحة اختار له هذا المكان ؟ .. لا شك أنه موظف يبحث عن أيسر الأمور .. سأل من أين محمد ؟ فقيل من الشرقية ، فقال يذهب إلى الزقازيق .. وماذا يستطيع محمد أن يقول بعد هذا .. فليرم به إلى الزقازيق .. وليصارع الضياع مرة أخرى .. فإن استطاع أن يتخلص منه فليرتم فى شبكة أبيه والطريق الذى يريد أن يخطه له دائما ..

زاره أبوه .. واستقبله بكل ترحاب .. إنه يحبه .. لكنه يريد أن يخط لنفسه طريق نفسه . لعله كان يختار الطب لو ترك له أن يختار ، ولكنه هو لم يختر فهو يحس أنه مسوق فى طريق لا يملك فيه لنفسه مصيراً . أما كان يكفى والده أن ينجبه ، ويختار له اسماً ، ويختار له التعليم منهجاً ، كان لابد أيضاً لأبيه أن يختار له الطب ؟ ويختار له الزوجة ، ويختار له البيت الذى يعيش فيه؟؟ نعم إنه طلق زوجته .. ولكنه مع ذلك يحس أن الخيوط التى تربط حياته خيوط غريبة عليه ليس بينه وبينها آصرة من تعرف ، وهى غريبة عن

نفسه لا جذور لها فى أنحاء كيانه ، خيوط تمتد إليه من خارجه لم تنبت من داخله ولا هى نمت معه . لا .. ولا واكبت حياته ، لا يستطيع أن يتذكر متى فكر فى كلية الطب ولا لماذا اختارها ولم يختر غيرها ؟ لا ..ولا يستطع أن يقول فى نفسه إنه قارن بين كلية الطب وغيرها من الكليات . لقد وجد نفسه فيها كما وجد اسمه محمداً ، وكما وجد زوجته هنية ، طريق دفعته إليه يد أبيه فما استطاع عنه حولا ولا منصرفاً ، واليوم يحل موظف الصحة الأحمق محل أبيه فيختار له الزقازيق لا يستشيره ولا يحاول أن يتعرف ميله . القلق يساوره منذ جاء إلى الزقازيق .. الخوف .. لماذا .. ؟ إنه لا يدرى ! أهو يخشى أن تتلقفه يد أبيه مرة أخرى ؟ أم هو يخشى أن يغلبه الضياع على أمره؟ !! أم يخشى نفسه فقد طالما ساورته الخشية من نفسه .. قلق لا يفارق نفسه .. فإن خلا لنفسه بعد ساعات العمل فتكت به نيران القلق فهو يلجأ إلى الأصدقاء من الزملاء ، وهم لا يقيمون فى بيت أحد منهم وإنما يقصدون إلى النادى .. وهم هناك لا يقصرون تسليتهم على الحديث وإنما يلجأون من ملالتهم إلى لعب البوكر . لعبة سهلة التعليم سريعة الكسب سريعة الخسارة. ولم يستغرق محمد كثير وقت ليصبح من اللاعبين المداومين . وقد كان أجرأ لاعب على المائدة فما كان يخاف شيئا إلا الخوف الذى يحس به وهو بعيد عن اللعب . كان عندما يلعب ينسى كل شىء ولا يعاوده القلق إلا وهو بعيد عن اللعب . وبعد .. فماذا كان يمكن أن يخفيه غير ذلك . إن قصر المرتب استطاع أن يطلب من أبيه عوناً .. ولن يرد أبوه له طلباً فهو من الناحية المالية آمن على نفسه ويستغرق فى اللعب . ويعرف أبوه أنه إذا أراده يجده فى النادى ويعرف أيضاً أنه يقامر ، وتعود سحب الضباب تتكاثف أمام عينيه .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. أربى اثنين فيصبح الأول زانياً لا يحفل بالمعروف الذى قدمته له حتى ليتزوج طليقة ابنى وأخيه ، ويصبح الثانى مقامراً

ويحتسب الله فى أولاده ، ويعاوده السؤال القديم : لماذا نصر على أن نأتى بالأولاد ؟ ! . وتتجمد السحابة من الضباب أمام عينيه والسؤال فى ذهنه ، ويسعى إليه وهو على المصطبة أمام بيته جاره الحاج مهدى :

ـ يا حاج أتستطيع أن تطلب لنا الدكتور محمد ؟

ـ نعم يا حاج مهدى .. فيم تريده ؟

ـ زوجة ابنى عثمان متعسرة فى الولادة .

ـ اطلبه من تليفون زين العابدين بك .

ويقوم الحاج والى إلى التليفون ويطلب ابنه وتخف كثافة الضباب أمام عينيه ويهتز السؤال فى ذهنه بعض الشىء .

(٢٩)

منذ قدمت آمال إلى قرية الحميدية وهى ملقاة فى البيت تطالعها من أبيها نظرات حانقة حائرة عاتية .. ! ومن أمها صوت دائم التقريع تتلون نغمته أبداً . وهى بين نظرات أبيها وصوت أمها فى أتون من العذاب لا تجد ما تفعله إلا أن تجلس وحيدة حتى تأتى إلى أمها زائرات .. وتأمن أن أمها لن تستطيع أن تسىء إليها فى حضرتهن ، فهى تأخذ مكانها معهن وتستمع إلى الحديث وتشارك فيه . ولم يمض كثير وقت حتى أصبح لها هى زائرات فى مثل سنها ، وأصبحت حياتها هى أولئك الزائرات وأحاديثهن . ولم تكن أحاديثهن إلا عن أزواجهن والخوافى الخفية من أسرارهن يسعدن بأن يلقينها على مسمعى آمال ، فما تجدى الأسرار والأحاديث أن تبدد وحدتها أو تؤنس وحشتها .

وكانت زائرات آمال ينقلن إليها فيما ينقلن أحاديث القرية وأحداثها .. وهى هذه الأيام أكثر ترديداً لاسم الدكتور محمد ، فالقرية تتحدث عن مهارته فى الطب والولادة ، والقرية تسوق الأمثلة على مهارته ، حقيقية حيناً، مختلقة أحياناً ، والأحاديث تتواكب وتبلغ مسمعى آمال فيما يبلغها من أحاديث وتزمع فى نفسها أمراً .

فهى تصحو ذات صباح وتجد أنها مريضة ، وتريد أن يراها الدكتور محمد الذى تلهج القرية بمهارته ، ويدفع حب الاستطلاع أمها أن تستدعى محمداً الذى حملته طفلا رضيعاً لترى كيف أصبح بعد أن صار طبيباً ، ولا يرى الأب مانعاً .. ويأتى الدكتور محمد .

ويدخل محمد إلى الحجرة وتلتقى عيون افترقت منذ سنوات طويلة .. عيون كانت طفلة لاهية وأصبحت اليوم شابة مرنتْ على النظر والنقد .. كان محمد مشوقاً إلى هذا اللقاء هو أيضاً .. كان يريد أن يرى هذه القطعة من طفولته كيف أصبحت حين مسها الشباب .

واستمرت النظرة لحظات . وبدا أن كلا من الاثنين رضى عن صاحبه .

وابتسمت الأم ، وصحا محمد فجأة يبدأ الكشف .. وحين أتمه التفت إلى الأم فى أدب :

ـ أتسمحين حضرتك بملعقة لأرى اللوز ؟

ـ حاضر .

وخرجت الأم وقالت آمال فى صوت لا يخلو من السخرية :

ـ ما للوز وللمغص يا دكتور ؟!

ـ أنا لا أرى بك شيئا ..

ـ إذن ؟

ـ لا أدرى .. لعلك كنت تريدين أن تكشفى أنت علىّ !!

وضحكت وقالت : وأنت ؟ .. آلم تكن تريد ذلك ؟

ـ نريد أن نرى طفولتنا ..

ـ وكيف وجدت طفولتك ؟

ـ هى بخير عندك ولكنى لا أظنها بخير عندى ..

ـ لماذا .. أنت دكتور قد الدنيا ..

وضحك ساخرا وهو يقول :

ـ يتهيأ لك .. أتصدقين كلام الفلاحين ؟

ـ لقد عرفت مرضى .

ـ لأنه نفس مرضى .

وتدخل الأم بالملعقة ، ويلقى الدكتور نظرة أخيرة على الحنجرة ولا يلبث أن يقول فى لهجة جادة :

ـ برد بسيط سأكتب لها دواء ، وأمر غداً إن شاء اللّه.

وتعرف آمال أنها وقعت من نفسه حيث تريد أن تقع ، ويخرج محمد ، ولا يمر كثير وقت حتى يذهب محمد إلى أبيه :

ـ يا آبا أنا أريد أن أخطب ..

ـ من ؟

ـ آمال بنت زين العابدين بك ..

ـ من ؟

ـ ماذا يا آبا ، هل فى هذا بأس ؟ !

ـ يا ابنى طلعت فى العالى !!

ـ أنا يا آبا طبيب ولى اسمى ولى مركزى ..

ـ أخاف أن يرفض .. إنك تزوجت مرة ولك ولد .. وهم غيرنا يا محمد.. !

- لا تخف .

ويعود الضباب إلى الحاج والى .. أكان لابد لى أن ألاقى الرفض والهزء أيضاً . مالنا نحن ولزين العابدين بك !!

ولا يسوّف الحاج والى كثيراً ، بل ينتهز فرصة يخلو فيها إلى زين العابدين بك ويتقدم بمطلبه .. ويدهش الحاج والى .. لقد رحب به الرجل .. رحب به ترحيباً أخافه أكثر مما أفرحه .. ولا يمضى كثير وقت حتى يتم الزواج .. ولكن الضباب لا يبارح الحاج والى كلما فكر فى شأن هذا الزواج ..

(٣٠)

أتلك هى الحياة التى كنت أصبو إليها ؟ أهذا هو الفن الذى عشت عمرى أهفو أن أكون واحداً من أهله ؟ أعيش فى رحابه .. وأقضى عمرى فى ظل منه ؟ أهذا هو الشعر الذى كنت أريد أن أنظمه ؟ .. ماذا أصبحت؟، وكيف جنحت من الحياة إلى هذا الجانب المظلم فيها ؟ ، هذا الجانب القاتم الداكن .. من أنا ؟ خباز ! يجهز ما يطلب منه بلا فن ولا روح ولا نوازع . أين هذه التهويمات التى كانت تتراقص فى داخلى تريد أن تصبح كلاماً ، وتلح فإذا هى متفجرة كالينبوع الأصيل دون حفر أو بحث أو تنقيب !! ماذا أصبحت .. يا حسين نريد أغنية يكون معناها كذا وكيت ؟ ، يا حسين نريد قصيدة تقول فيها كذا وكيت .. هم الذين يقولون وأنا أتلقف أوامرهم لأجعل منها نظماً لا أجد فيه شيئا من نفسى ، وإنما هى نفوسهم وما يطلبون ! وهل أستطيع أن أقول لا ؟ ! وكيف أعيش ، منذ تزوجت هنية وهى لا تترك عاماً دون أن تقدم إلى فماً جديداً يريد أن يعيش ويعيش . من أعصابى يعيش يقتات من دمى ومن كرامة فنى المهدرة ، لم يكن هذا ما

أريد.. كنت أحب الشعر أقوله وأجد فيه نفسي ومشاعرى أنا لا مطالب المطربين والمطربات . فأين منى هذا الشعر الآن ؟.. أصبحت كآلة الكتابة أكتب ما يراد لى أن يكتب بفارق واحد : إنى أخرجه نظماً أمقته .. أمقته .. أين هذا من الفن ؟ ولكن هل يدرى هؤلاء الأطفال فى صرختهم الجائعة بماذا يقتاتون ؟ بأشلاء فنى الذى ودعته بلا أمل فى اللقاء .. ومن أين لى اللقاء؟.. ماذا أصبحت ؟.. مدرس وموظف أغانى لدى المطربين والمطربات .. وتتسامع مصر بما أقول . ولكن ما أبغض ما أقول إلى نفسى !.. هذا ليس أنا.. كلما امتدح أحد بعض مقطوعاتى أحسست كأنه يمتدح غريماً لى أكرهه. وأعيش .. من جثة آمالى .. أعيش من دماء أحلامى . أعيش .. وهنية وأولادها يأكلون .. لا يدرون ماذا يأكلون ..

وانهمرت دمعة على خد حسين وتحسسها بيده ، ثم نظر إلى مائها على يده . وأنعم النظر وكأنما يريد أن يعرف من أى منبع انهمرت هذه الدمعة ؟، أهى الدمعة التى ألفها تنهمر دون أن يدعو إليها داع ؟ أم هى صادرة عن نفسه هذه التى يمزقها الألم وتأكلها النيران ؟ !

ودق جرس التليفون فى البيت فقد أرغمه عمله أن يكون فى بيته تليفون. وأمسك السماعة :

ـ نعم .

وجاءه الصوت آمراً أكثر منه راجياً .. ولم يجد ما يقول إلا ..

ـ حاضر .

وسأله الصوت فأجاب :

ـ بعد أسبوع .

وجاءه الصوت مرة أخرى فأجابه :

ـ حاضر .. أقل من أسبوع .. نعم فهمت ما تريد .. نعم سيكون كما تريد .. نعم .. حاضر .. نعم .. حاضر .
ووضع السماعة وظل يردد .. نعم .. حاضر .. نعم .. حاضر .

(٣١)

أقام محمد وعروسه بالزقازيق واستطاع أن يخلو لها فى أول حياتهما الزوجية بضعة أسابيع ، ولكن نداء القمار كان عالياً يطن فى أذنيه طنيناً متصل الجرس حتى لم يستطع أن يغفله ، فعاد طريقه إلى النادى ومائدة القمار، وعادت آمال إلى الوحدة .

إلا أنها فى هذه المرة كانت فى مدينة ، فما أسرع ما ارتبطت أواصر الصداقة بينها وبين جاراتها الساكنات بالطابق الأعلى ، والأخريات المقيمات بالبيوت المقابلة أو الملاصقة . ولكن ما أقل ما تغنى هذه الصداقات .. فللزيارات أوقات تنتهى عندها ، وهى أشد ما تكون حاجة إلى الصديقة فى الأوقات التى لا تصلح للزيارة .. هناك فى أعماق الليل حين لا تسمع إلا الصمت ولا ترى إلا الظلام .. فى هذه الأوقات التى تمتد بغير نهاية تريد هى الصديقة .. تريد من ينسيها أنها تزوجت لمجرد الزواج .. تريد من يجعلها لا تذكر أنها تزوجت لأنها برمت بالسجن فى القرية .. تريد زوجها الذى تزوجته عن غير حب ليقول لها إنه يحبها .. أو ليقول لها أى شىء .. ولينتشلها من هذه الوحدة التى عانت منها الكثير .. هناك فى القرية لا يحيط بها إلا غضب أبيها وتزمت أمها .

لم تكن الجارات إذن يعنين شيئاً بالنسبة إليها ، فقد كانت الفلاحات بالقرية يجئنها فى نفس المواعيد التى تتبادل فيها الزيارات مع جاراتها ، لم يزد

عليها فى بيت زوجها إلا أنها أصبحت تزور معه القاهرة من حين إلى حين .. وكانت تستطيع هناك أن تزور صديقتها ناهد التى تزوجت هى الأخرى وإن كانت مازالت تسير حياتها كما كانت تسيرها وهى بعد فتاة فى المدرسة .. كانت هذه الزيارات إلى القاهرة هى المتعة الوحيدة التى أحست آمال بها . ولم تكن قد أعدت نفسها لهذا الذى تلاقيه ، فحين لقيته امتلأت نفسها تمرداً وحنقاً ، حتى محمد بن الحاج والى .. يتركها ليلعب القمار ! وينفرد بها الليل! لماذا تزوجته إذن ؟.. نعم إنها تدرى أنها تزوجته لأنها لم تتوقع أن تجد غيره .. ولكن أيكون هذا مصيرها معه ؟ !! وتنظر إلى المرآة وتزداد سخطاً على محمد وعلى أبيها ، بل إنها تسخط أيضاً على هذا اليوم الذى عثر فيه أبوها عليها بالسيارة الواقفة بالجزيرة .

وكانت آمال حاملا فى طفلها الأول وكان موعد وضعها قد اقترب .. ولكن محمداً لم يعبأ كثيراً بهذا .. فإن يكن هذا القادم هو الطفل الأول لآمال فما كان الأول لمحمد .. فهو لا يزيد حين يترك البيت عن أن يسألها فى سرعة:

ـ أتحسين ألماً ؟

وتقول :

ـ لا .

فيأخذ سمته إلى السلم .. طريقه إلى المائدة التى أصبح لا يطيق العيش دونها .

وقد كانت فى هذا اليوم تحس الآلام ، ولكنها وجدت نفسها تقول لا .. فى غير مبالاة ، وكأنما خيل إليها أنها بهذا تعاقبه على إهماله لها .

ونزل محمد وازدادت آلام الوضع ، وحاولت أن تتصل بزوجها بالتليفون ولكنها وجدته معطلا ، فأرسلت خادمتها إلى عدلية هانم التى تقطن بالطابق

الأعلى .. وسرعان ما نزلت عدلية ثم نادت زوجها أن يحاول الاتصال بمحمد فى النادى ، وأن يحضر سيارة أجرة لتقلهم إلى المستشفى . وكانت السيارة الأجرة أسرع من محمد .. وركبت عدلية وآمال ووقف زوج عدلية المهندس عزت زكى على باب السيارة حائرا ماذا يفعل إلى أن صاحت به زوجته .

ـ اركب يا عزت .. فلا يمكن أن نذهب إلى المستشفى بلا رجل معنا .

وركب عزت فى حيرة لا يدرى ماذا يفعل . وتحركت السيارة ، وحين جاء محمد أخبرته الخادمة أن سيدتها سبقتهم إلى المستشفى مع عدلية هانم وزوجها .

وحين وصل محمد إلى المستشفى كانت آمال لا تزال تضع بينما كان عزت جالساً فى بهو المستشفى حائرا لا يزال .. وشكر محمد عزت على اهتمامه ، ولم يجد عزت مناصاً أن ينتظر . ولبس محمد ملابس الأطباء .. وأراد أن يدخل إلى زوجته .. ولكن قبل أن يدلف إلى الباب كانت الولادة قد تمت ، وجاءت ابنته الأولى إلى الحياة دون أن يكون له نصيب فى معاونة أمها .. ولم تنس آمال هذه الوحدة التى عانتها وهى تواجه الأمومة لأول مرة فى حياتها. فابتدرت زوجها وهى تراه بعد الولادة مباشرة :

ـ ألم تنته البرتيتة إلا الآن ؟ كثر خيرك يا محمد .. كثر خيرك يا دكتور محمد .

وأطرق محمد ولم يحاول أن يجيب ، بل ذهب إلى السرير الصغير الذى يحمل وليدته وظل يرنو إليها بنظرات فارغة فيها خزى وفيها خجل ، وإن كان يحاول أن يجعل فيها شيئا من الأبوة .

* * *

حين عادت آمال إلى البيت وجدت فى ابنتها بعض العزاء عن الوحدة . ولكن .. ولكن مازال الليل يفترسها منتهزاً فرصة وحدتها .. وتجلس إلى جوار ابنتها سوسن ، ولكن الوحدة لا تزول مع سوسن .

وفى يوم كانت جالسة فى الشرفة ورأت عزت زكى قادماً ..

ولم تدر لماذا سارعت إلى باب بيتها ففتحته .. وانتظرت حتى صعد عزت فوجدها واقفة بالباب .. وفكر أن يحييها ويأخذ طريقه إلى بيته ولكنها سارعت تقول :

ـ لم أشكرك يا عزت بك على اهتمامك بى ..

ـ يا ستى العفو .. أنا لم أفعل إلا الواجب .

ـ لا .. أنت فعلت أكثر من الواجب .. كثر خيرك .. تفضل .

ـ شكراً .

ـ تفضل اشرب شيئاً .

ـ شكراً . ولكنى لمحت عدلية فى الشرفة ولعلها تنتظرنى .

ـ أهكذا ؟

ـ مرة أخرى إن شاء الله .

ـ أهلا وسهلا .

ـ عن إذنك ..

ـ تفضل .



صلى الحاج والى الفجر حاضراً وقصد إلى الأريكة فى بهو بيتـه ، وجلس إلى جانب الحاجة بمبة التى كانت تعد له القهوة وصمت قليلا ثم قال :

ـ ما رأيك يا حاجة بمبة ؟

وصمتت الحاجة بمبة وراحت تحرك القهوة على النار .. ثم سكبت بعضاً منها فى فنجان وأعادتها إلى النار مرة أخرى ولم تقل شيئاً ، وأدرك الحاج والى أنها لا تريد أن تجيب فقال لها :

ـ أليس أبو الولد أولى به ؟

وسكتت الحاجة بمبة مرة أخرى واستطرد الحاج والى :

ـ وهو أيضاً صغير لا يتحمل الذهاب إلى البندر كل يوم فى البرد الشديد.. وأنت عارفة برد الصباح المبكر .

وقالت الحاجة بمبة :

ـ ألم يكن أبوه يذهب فى البرد ؟ ! .. ماذا جرى له ؟ !

وأطرق الحاج والى قليلا ثم قال :

ـ لم يكن لمحمد أحد فى البندر .. أستطيع أن أتركه عنده .

ـ وهل تعتقد أن أحمد له أحد الآن ؟ .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أليس أبوه هذا ؟

قالت الحاجة بمبة فى صوت غاضب :

ـ لا يا حاج ليس أباه .. أنت أبوه وأنا أمه .. هل رأيته يسأل عنه.. الآن لا يعلم إن كان الموعد قد جاء ليذهب إلى مدرسة البندر أم إنه ليس أباه ؟

ـ على مهلك يا حاجة .. إنه يعتمد عليّ وعليك ..

ـ أنا لا أقول يشترى له شيئاً .. أنا أقول يسأل .. اسمع يا حاج .. أنا لا أطمئن أن يذهب أحمد ليسكن مع محمد .

ـ إنه أبوه .

ـ أعلم ولكن محمدًا ليس عطوفاً .. وأخشى أيضاً على الولد من امرأة أبيه.

ـ وأنت حين ربيت محمدًا ألم تكونى امرأة أبيه ؟

ـ أنا يا حاج والى أحببت ابنك بل وأحببت ابن ضرتى .. أنا ..

ـ نعم أنت خطأ فى الطبيعة .. أنت استثناء .. أنت لا مثيل لك يا حاجة.

ـ أخشى على أحمد من امرأة أبيه .

ـ اسمعى يا حاجة .. سأوفق بين رأيك ورأيى .. أنا سأذهب الآن إلى بيت محمد .. وأكلم آمال دون علم زوجها ، وأرى إن كانت ترحب بأحمد أم لا . وسأفهم من طريقة إجابتها حقيقة شعورها ونتصرف بناء على هذا .

ـ قد ترحب ثم تسىء إلى الولد حين يقيم عندها .

ـ يا ستى لماذا نقدر البلاء قبل وقوعه ، وعلى كل حال إننا نستطيع دائماً أن نسترد أحمد .. أليس كذلك ؟

وسكتت الحاجة ، وسكت الحاج وأخذ يشرب قهوته فى هدوء وقالت :

ـ هل ستأخذ أحمد معك ؟..

ـ لماذا ؟

ـ لا لزوم ؟

ـ أبداً .. إننى سأسألها فقط .

وعاد الصمت إلى الزوجين لا يقطعه إلا رشفات الحاج والى للقهوة .

كان الوقت ضحى حين بلغ الحاج والى منزل ابنه ، وهكذا كان واثقاً أنه لن يجد محمدًا بالمنزل . وصعد الحاج والى درجات السلم فى هدوء بطىء حتى بلغ الشقة التى يسكن فيها محمد ، ومد يده يريد أن يدق الجرس ولكنه فوجئ بزجاج الباب المصنفر يكشف له عن منظر أخذله .

ورأى الحاج والى شبحين يتعانقان أحدهما لرجل وآخر لامرأة شعرها مرسل على كتفيها ، وطالت القبلة والحاج واقف ذاهلا عن نفسه ويده نصف ممتدة إلى الجرس وعيناه شاخصتان إلى ما يرى وفمه مفتوح من الدهشة! لماذا لم يذهب محمد إلى المستشفى حتى الآن ؟ وانتهت القبلة وفتح الباب ولم يكن محمد فى بيته .. كان عزت زكى .. ولم يكن الحاج والى يعرفه. ولم يكن هو يعرف الحاج والى !! وقالت آمال فى لعثمة : ــ أهلا عم الحاج ..

وظل الحاج صامتاً ، وأدرك عزت الموقف الذى يواجهه فنظر قليلا إلى الحاج ثم وثب يعدو السلم فى سرعة مجنونة .

وقالت آمال : تفضل ..

ودون أن يجيب الحاج والى أخذ سمته إلى درجات السلم والضباب يغشى طريقه ، والذهول يأخذ عليه مسالك تفكيره .

ظل الحاج والى سائراً بجانب بحر مويس يغمض عينيه ويفتحهما وكأنما يريد أن يمحو ما رأى فتزداد الصورة التصاقاً بعينيه وذهنه وكيانه كله .. ماذا يفعل ؟ أيخبر ابنه ؟ إنه إذا فعل فكأنه قتله !! فإن الزوج يظل محتفظاً برجولته حتى يعرف أن زوجته تعبث بشرفه .. المعرفة هى الحد الفاصل بين الشرف وعدم الشرف .. فكيف يقول لولده وحيده إنه بلا شرف ؟ !! أيقول لأبيها؟ وماذا يستطيع أبوها أن يفعل ؟

ووثب إلى ذهنه فى هذه اللحظة موافقة أبيها السريعة على زواجها من محمد وهو من كان زوجاً لأخرى قبلها وله منها ولد ! !

لابد أن زين العابدين يعرف عن أخلاق ابنته عوجاً .. ماذا يفعل ؟ أيقول له ؟ .. لا .. وجد نفسه يحنو على ابنه أن يعرف أحد حتى ولو كان أباها ، إن شرف ابنه مهين مضاع .. ماذا يفعل إذن ؟ ..

عاد أدراجه إلى بيت ابنه ودق الجرس وفتحت له آمال الباب ودخل إلى حجرة الجلوس ودخلت من خلفه وأغلقت الباب وظل ناظراً إليها فترة طويلة ثم قال :

ـ لماذا ؟

وصمتت وصمت حيناً ثم قال :

ـ ماذا أفعل الآن ؟ أقول لأبيك ؟ !

وعاد إلى ذهنها ذلك السجن الذى فرض عليها فى القرية فقالت فى سرعة :

ـ لا .

ـ إذن ماذا أفعل .. ؟ ماذا يمكن أن أفعل ؟ .. لو قلت لمحمد قتلته ..

وأطرقت آمال صامتة لا تدرى ماذا تقول ، وعادت إلى نفسها تلك الوساوس من وحدتها بالقرية فقالت دون وعى :

ـ لا تقل لأبى .

ـ وأسكت ؟ .. أسكت كأنى لم أر شرف ابنى يلطخ على يديك .. أسكت يا ست آمال ؟ ..

وصمتت آمال لحظات ثم قالت :

ـ إنها أول مرة .

ـ أتظنين أن هذا يهمنى كثيراً .. إن مجرد عزمك على هذا يكفى .

وساد الصمت .. وعاد الحاج يقول :

- من هو ؟

- المهندس الذى يسكن بالطابق الأعلى .

وعاد يقول وكأنه لم يسمع الإجابة :

- ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟ !!

وقام عن كرسيه وتركها واقفة ، وقصد إلى الباب الخارجى وأخذ سبيله إلى الطريق يمشى بجانب بحر مويس والضباب يغطى طريقه ..

أهذا كنت حريصاً على أن يكون لى أولاد ؟ .. أهذا نجىء بهم ؟ .. ماذا أفعل .. ماذا أفعل ؟ !!

لم يدر لماذا أراد أن يذهب إلى محمد ويراه .. أحس كأنه يريد أن يستوثق أنه لا يعرف عن زوجته شيئاً ! ، أو أحس أن ابنه جريح وأنه لابد أن يكون بجانبه ، لا يدرى أى دافع خالجه ، وإنما أحس أنه يريد أن يرى ابنه . ووجد قدميه تقودانه إلى المستشفى الأميرى الذى يقع على بحر مويس ، ذلك النهر الذى صاحبه منذ دخل فى غمار نكبته ولم يفارقه . ظل سائراً بجانب النهر حتى وجد نفسه أمام باب المستشفى ومع ظهور الباب طالعه سؤال لم يفكر فيه .. ماذا هو قائل لابنه ، أى سبب سيخلقه ليبرر هذه الزيارة ، ولم تطل حيرته .. فسرعان ما قفز أحمد إلى ذهنه . ودخل إلى المستشفى وسرعان ما استدعى له محمد الذى قبّل يد أبيه فى محاولة جادة أن يخفى دهشته من الزيارة . ونظر الأب إلى ابنه وهو يقبّل يده ، وأحس نحوه حبًّا كبيراً ووجد يده تربت ظهره فى حنان .. وتشبثت يده لحظة بجاكتة محمد، فقد خالجت نفسه رغبة ملحة أن يعانق ولده ، ثم استيقظ من خواجه.. فما تعود أن يعانق ابنه كلما لقيه .. وانفرجت أصابعه عن الجاكتة، وأمسك بيد ولده وقاده إلى الكرسى وجلسا :

- كنت فى البندر ، وخطر لى أن أراك :

ولم يكف هذا السبب عند محمد .. وأحس أن أباه مازال يخفى سبباً آخر.. فنظر إليه وحب الاستطلاع لا يريد أن يبارح عينيه وقال :

- أهلاً وسهلا .. شرفت ..

- وهناك موضوع قلت أكلمك فيه .

- أنا تحت أمرك يا با ..

- أحمد ..

وسكت الأب وسكت محمد ، وفكر الحاج والى أن أحمد ربما يكون رقيباً على آمال يمنعها .. وقبل أن يسترسل فى تفكيره ، نظر إلى محمد وكأنما خشى أن يكون قد أبصر ما يفكر فيه .. فقال دون ريث تفكير :

- أنت تعلم أن موعد دخوله المدرسة الابتدائية قد حل .

- نعم .

- أخاف عليه من الصباح الباكر وبرده ، فأنا لا أنسى يوماً مرضت أنت فيه بالالتهاب الرئوى وتعلقت أنفاسنا بأبواب السماء حتى شفاك اللّه .

- أنا تحت أمرك .

- يخيل إلى أنه لو أقام معك ، لكان هذا أنسب له .

- أنا طبعاً ..

وقاطعه أبوه ..

- وطبعاً أنا سأقدر زيادة التكاليف عليك .

- أنت لا تؤخر عنى طلباً .

- وهل لى إلا أنت يا ابنى ؟

وأحس سكيناً حادة وهو يقول هذا ، وعاوده الضباب .. أتـراى ظلمتـك حين جئت بك إلى الدنيا ؟ ولم ير محمد ما يعانيه أبوه وكان يفكـر فيمـا يريـد أن يقول ، وهوم الصمت على الاثنين لحظات ثم تنحنح محمد وقال :

ـ الحقيقة أننى أطمئن على أحمد مع أمى الحاجة أكثر مما لو كان عندى فى البيت .

ونظر الأب ملياً إلى ولده وأدرك ما يريد ابنه أن يقول ، ثم قال :

ـ لعلك على حق .. طيب أقوم أنا .

ـ لم تشرب القهوةَ .

ـ وراءك شغلك .. سلام عليكم .

ـ مع السلامة يا آبا .

وقبّل يده وهو يسلم عليه .. وخـرج الحـاج والى مـرة أخـرى إلى الطريـق وبحر مويس .. لم يعد موضوع أحمد يهمه فى ذاته .. وإنما كان يريـد أن يـرى محمدًا وقد رآه .. وسار فى الطريق وعاد الضباب يغشى سبيله ، ولكنه نـوع آخـر مـن الضبـاب .. رفـع الحـاج والى يـده إلى عينـه ومسـح الدمـوع التـى تراكمت على أهدابه .

دأب الحاج والى منذ ذلك اليوم أن يزور بيت ابنه فى كل وقت من أوقات النهار . ودهش محمد لهذه الزيارات المتكاثرة ولكن آمال عرفت ما يريد الحاج والى أن يفرضه عليها من رقابة .

وكان الحاج والى يعتبر نفسه المسئول وحده عما يجرى فى بيت محمد ، فقد حمل السر وحده لم يبح به ولا حتى لزوجته ، حمل السر وحده شر حمل عرفه فى حياته الطويلة .. كان يحس به سراً أشد وطأة من الحياة نفسها .. وكان كلما ضاق بسره قصد إلى الزقازيق وداهم بيت محمد .. وقليلا ما كان يجد محمد ، وما كان هذا يعنيه فى شىء بل كان حين لا يجده يدخل إلى البيت ويظل صامتاً لا يتحدث . وتحضر له آمال القهوة ويشربها ويظل ناظرا إليها طوال جلسته لا ينطق ، بل يترك عينيه تقولان وقد كانتا تقولان كثيراً ، وكانت آمال تستمع إلى هذا الحديث الصامت فينصب على قلبها كأنه المدى القاطعة ، وتحاول ألا تنظر إلى الحاج ولكن عينيه الهادرتين بالحديث ما تلبثان أن تفرضا عليها أن تنظر إليهما لترى وتسمع الحديث الصامت ، وتواصل المدى عملها فى قلبها لا بل فى كيانها جميعاً .

ويشرب الحاج والى قهوته ويطلق تنهيدة ينتزعها من أعماق آلامه ويقوم إلى الباب لا يسلم . فإذا أقفلت آمال الباب من خلفه تهاوت فى بكاء صاخب ثائر ثورة لا تدرى كيف تنفس عنها .

وفى يوم بينما الحاج والى جالس معها . عيناه مثبتتان عليها قالت لـه فجأة:

ـ عم الحاج .

ولم يجب ، فواصلت الحديث :

ـ أتستطيع أن تقتلنى .

ولم يجب ، فواصلت الحديث :

ـ كنت قد هددتنى أن تقول لأبى ورجوتك ألا تفعل .. أتراك إذا قلت له تكف عن هذه النظرات .. قل له .. قل له .. فقط كف عن هذه النظرات .

وانخرطت فى البكاء ، ولم يقل الحاج والى شيئاً ، وإنما قام وانصرف شأنه دائماً .

وفى يوم عرض عليها محمد أن يسافر إلى القاهرة ، وكأنما أنبتت كلمة القاهرة فكرة فى نفسها لم تكن تخطر لها ..

وفى القطار قالت لمحمد :

ـ أنت الآن دكتور معروف فى الزقازيق يا محمد .

وأحس محمد الزهو وهو يقول :

ـ الحمد للّه .

ـ صاحبتى ناهد قالت لى إنها تعرف زبائن من مصر جاءوا إليك فى الزقازيق لتعالجهم .

ـ صحيح ؟

ـ ألم تكن تعرف ؟

ـ أنا لا أسأل الزبائن من أين جاءوا .

ـ ناهد قالت لى هذا .. وقد ذكرت لى أسماءهم ولكنى نسيتها .

ـ إذن فزوجك رجل مهم .

ـ أنت طيب ، محمد ليس فيك إلا عيب واحد .

ـ أعرفه .. إنه يسلينى يا آمال .. يجعلنى أنسى كل ما ألاقيه أثناء النهار.

ـ يا ترى يا محمد لو انتقلنا إلى مصر .

ـ ماذا ؟

ـ إن اسمك كبير الآن .. ستجد زبائن أكثر من زبائن الزقازيق ، وقد تجد تسلية أخرى .

ـ أما الزبائن فلا أعلم .. مصر واسعة وأخشى أن أضيع فيها وسط الزحام . أما التسلية الأخرى فأشك كثيراً أن أجد شيئاً يسليني عن الورق يا آمال .

ـ نجرب .

ـ ألا تخشين أن تكلفنا التجربة زبائن الزقازيق ولا تعوضنا بزبائن مصر ؟

ـ نحن والحمد لله لا نحتاج للمال . أنت وحيد أبيك وأنا وحيدة أبي ومرتبك يكفينا .. فما الضرر في أن نجرب ؟

ـ على شرط .

ـ قل شروطك كلها .

ـ أن تفقدى الأمل فى أن أترك لعب الورق .

ـ لا بأس .. يكفى أن أكون فى القاهرة وأتنفس .

وأطلقت تنهيدة عميقة ، وأحست أنها أخيراً تستطيع فعلا أن تتنفس .

حين أبلغ محمد أباه أنه نقل إلى القاهرة ، صمت الأب طويلا حتى اضطر محمد آخر الأمر أن يقول :

ـ ماذا يابا .. أيغضبك هذا ؟

وظل الحاج والى صامتاً فترة أخرى ، ثم قال فجأة وقد عاوده شعور بالخوف أن يرى ابنه الأفكار التى تدور برأسه :

ـ وما الداعى لهذا النقل ؟

ـ المجال هناك أوسع .

ـ هنا يعرفك الناس .

ـ وسيعرفنى الناس هناك .

ولم يكن الحاج والى يحتاج إلى كثير تفكير ليدرك أن آمال هى التى ألحت لإتمام هذا النقل ، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً إلا :

ـ مصر واسعة يا محمد .

ـ والناس فيها كثيرون .

ـ أخشى أن تضيع هناك بين الأطباء بعد أن أصبحت هنا معروفاً .

ـ ألا تثق بى يابا ؟

ـ صمت الحاج والى قليلا ثم قال :

ـ بل إنى أثق بك كل الثقة .

وعاد إلى الصمت ، وهوم السكون عليهما لحظات ثم قال :

ـ يا محمد خذ بالك من ..

ولم يكمل ، وقال محمد :

ـ ممن يا أبى ؟

وتنهد الأب ثم قال : من صحتك يا ابنى .

وفهم محمد ما يقصد أبوه أو خيل إليه أنه فهم ، فأطرق فى استخذاء .

فقال الأب :

ـ إنك تسهر كثيراً ولا تراعى ..

وصمت محمد ، وأكمل الأب بعد تنهدة عميقة :

ـ صحتك .

وعاد الصمت مرة أخرى يحلق على الأب وابنه ، ثم قال الحاج والى :

ـ إنك تحتاج لفلوس للنقل ولإنشاء عيادة ..

وسكت محمد وقال الأب :

ـ خذ .. معى الآن مائة جنيه ، وإن احتجت لزيادة أرسل لىّ .

ـ أطال اللّه عمرك يابا .

وانصرف محمد وظل الأب وحيداً ، وعندما قدمت إليه الحاجة بمبة وجدته ساهماً مفكراً ولم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركت الغرفة وعاد هو إلى وحدته وإن كان لم يفارقها .. لماذا تفعلين هذا بنا يا آمال .. لماذا تفعلين هذا بنا ؟ ..

سرعان ما استعاد محمد صلاته بأصدقاء الكلية فقد كان يتصل بهم كلما جاء إلى القاهرة ، فحين نقل إليها كان على علم بمكان أصدقائه جميعاً وفى مقدمتهم مجدى عبد العزيز الذى أصبح طبيباً بمستشفى الملك حيث نقل محمد، وهكذا التأم الصديقان مرة أخرى ، تجمع بينهما الذكريات القديمة والزمالة فى المستشفى .

وما أن استقر المقام بمحمد وآمال وسوسن فى القاهرة ، حتى أخذ محمد يبحث عن طلبتين : الطلبة الأولى رفقة يشاركونه فى اللعب ، والطلبة الثانية

شقة تصلح عيادة له . وقد حقق له مجدى الطلبتين كلتيهما . فإن يكن مجدى غير هاو للعب القمار إلا أنه يجلس مع اللاعبين كل ليلة فى نادى القاهرة قانعاً بالمشاهدة عن الاشتراك فى اللعب ، وسرعان ما انضم محمد إلى هؤلاء اللاعبين واثقاً أن ليس بينهم نصاب يغش فى اللعب .

كما استطاع مجدى بما له من صلات ممتدة فى القاهرة أن يعثر لمحمد على شقة مناسبة فى ميدان الأزهر لتكون عيادة له .

أما آمال فإنها قبل أن يستقر بها المقام فى القاهرة كلمت صديقتها ناهد ، وما أسرع ما تم بينهما اللقاء .

ـ أخيراً يا آمال .. أخيراً عدت إلى مصر .

ـ أنت لا تعرفين كم كنت أشتاق إلى مصر وإليك .

ـ حدثينى عن أيامك فى الزقازيق .

ـ أيام سوداء .. لا أراك اللّه مثلها .

ـ سأعوضك عنها أياماً بيضاء مشرقة .

ـ احتاج إلى سنين طويلة لأعوض ما شفته من عذاب .

ـ هل كان لك أصدقاء فى الزقازيق ؟

ـ زوجات الموظفين .

ـ لا . أنا أقصد أصدقاء لا صديقات .

ـ اسكتى .

ـ وراء اسكتى حكاية .

وقصت آمال قصتها مع صديقها الوحيد عزت ، وما فعله معها الحاج والى .و حين انتهت قالت ناهد :

ـ عبيطة .

ـ وماذا كنت أفعل ؟

ـ لماذا يكون هذا فى بيتك ؟

ـ وأين يمكن أن يكون ؟

ـ أنت عبيطة .

ـ هل لك أصدقاء ؟

ـ عدد شعر رأسى .

ـ وزوجك .

ـ يسهر فى الخارج وأسهر فى الخارج .. ألا يسهر زوجك ؟ .

ـ يسهر .

ـ سأعوضك عن أيام الزقازيق .

ـ سنرى .

(٣٥)

ذهب محمد إلى نادى القاهرة فى الساعة التاسعة وكان مجدى هناك ، وتناولا العشاء معاً وقاما ينتظران اللاعبين فى حجرة اللعب ، وجاء أحد اللاعبين وقال لمحمد :

ـ يظهر أنه لا يمكن عمل برتيتة الليلة .

ـ لماذا ؟

ـ يسرى وحمدى سافرا يعزيان زميلا لهما فى المنصورة .

قال مجدى لمحمد :

ـ تأخذ إجازة ليلة .

وقال محمد فى ضيق :

ـ وماذا تفعل !

وقال مجدى فجأة :

ـ عندى فكرة .. ألا تحب أن ترى بعض الذكريات !

ـ الحقيقة يا مجدى أن لا شيء عندى يسلينى مثل اللعب .

ـ بل عندى أنا ما يسليك أكثر من اللعب .

ـ يا شيخ .

ـ اسمع كلامى .

ـ ماذا ؟

ـ أتعرف عزيزة !

ـ الله يرحم أيامها .

ـ إنها الآن فى عزها .

ـ ماذا ؟

ـ لها بيت تجتمع فيه السيدات من الطبقة الراقية ليلتقوا بآخرين .. الليلة هناك ليلة من ألف ليلة .. مرح وضحك وسرور .. لو ذهبت مرة نسيت القمار إلى الأبد .

ـ يا عم أنا متزوج وليس لى فى النسوان .

ـ وأنا أيضاً متزوج .. إننا سنجلس فقط نضحك ونلهو ثم نروح .

ـ وماذا تستفيد منا إذا كنا لن ندفع شيئاً .

ـ ليس من الضرورى أن يدفع جميع من يذهب إليها .. فإن القلة التى تدفع تعوضها عن جميع الآخرين .. هيه ماذا قلت ؟

ـ ما ترى .

وفى غير حماسة رافق محمد صديقه مجدى إلى بيت عزيزة .. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة بقليل حين دق مجدى جرس البيت ، وفتح الباب عن ضجيج صاخب ، ودخل مجدى وهو يجر محمدًا جرًّا ..



وحين بلغا أول الردهة رأيا مصادر الضجيج : نساء عاريات الصدور يطلقن الضحكات المعربدة ، وقد التفت حول صدورهن أيدى رجال تراوحت أعمارهم بين الشباب والكهولة والشيخوخة . وقال مجدى لصديقه:

ـ انتظر لحظة حتى أنادى عزيزة .

وتركه وحيداً ودلف داخل الشقة ، ولم يجد محمد ما يفعله إلا أن يطالع الوجوه فراح يمر بها . وفجأة تسمرت عيناه على زوجته آمال بين يدى رجل من هؤلاء .. لم يصدق .. وتفرس .. إنها هى .. وقد رأته وانتفضت من بين ذراع رفيقها . وأرادت أن تفعل شيئاً . لم تكن تدرى ما تريد أن تفعل ولا يدرى هو ، وإنما فى لحظة حزم أمره على شىء واندفع نحو باب الخروج لاهثاً.. وخرج إلى الطريق .. أيقتلها ؟ .. زوجة داعرة وزوج قاتل وتحل الجناية على سوسن وأحمد .. حبيبى أحمد .. ماذا يفعل ؟ .. وجد نفسه يركب سيارة أجرة ويأمر السائق أن ينطلق إلى المنيرة .. ماذا يفعل فى البيت.. نزل من السيارة وطرق باب البواب ، وخرج إليه البواب نصف نائم .. وسأله محمد :

ـ أتعرف مكان المأذون هنا ؟

وقال البواب :

ـ نعم .

وقال محمد فى حزم :

ـ تعال معى .

وطرق باب المأذون طرقاً ملحاً حتى فتح ، ودخل محمد والبواب وسائق السيارة الأجرة . وبعد دقائق كانت آمال طالقاً .

وعاد محمد إلى البيت وفتح الباب ووجد آمال بالبهو ، وقامت تجرى إليه:

ـ محمد .

ـ أنت طالق ، وهذه ورقتك .

ورمى الورقة على الأرض ، وأمسكت آمال يده :

ـ أرجوك .. أبوس إيدك.

ونتر محمد يدها وجرى إلى السلم . ووجد سائق السيارة الأجرة مازال واقفاً فسأله :

ـ أتذهب إلى الزقازيق ؟

ـ الآن ؟ .

ـ نعم .

ـ أذهب .

وفى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى كان محمد يطرق باب أبيه ، وفتحت الحاجة بمبة الباب وارتاعت حين رأت محمد زائغ النظرات حائراً ملتاعاً . ودخل محمد :

ـ أين أبى ؟

وقال الحاج والى وهو يقف على باب حجرته :

ـ أهلا محمد .. خير يا ابنى؟

ـ آبا .. آبا .

واقترب الحاج والى من ابنه واحتضنه بذراعه اليمنى وسار به إلى الأريكة وجلسا .

ـ مالك يا محمد ؟

وانفجر محمد :

ـ طلقتها يابا .. طلقتها .. طلقتها .

وأطرق الحاج والى قليلا ، وراح الضباب يتصاعد أمام عينيه ولم يجد شيئاً يقوله إلا : خيراً إن شاء اللّه .. خيراً إن شاء اللّه .

* * *

لم ينم محمد ليلته ، وإنما راحٍ يتقلب فى فراشه حتى أذن الفجر بشـروق ، فقام إلى إلبهو وجلس به وحيداً . فلم تطل وحدته ، فقد قـام أبـوه إلى صـلاة الفجر .. وانتظر محمد حتى ختم أبوه الصلاة فقال له :

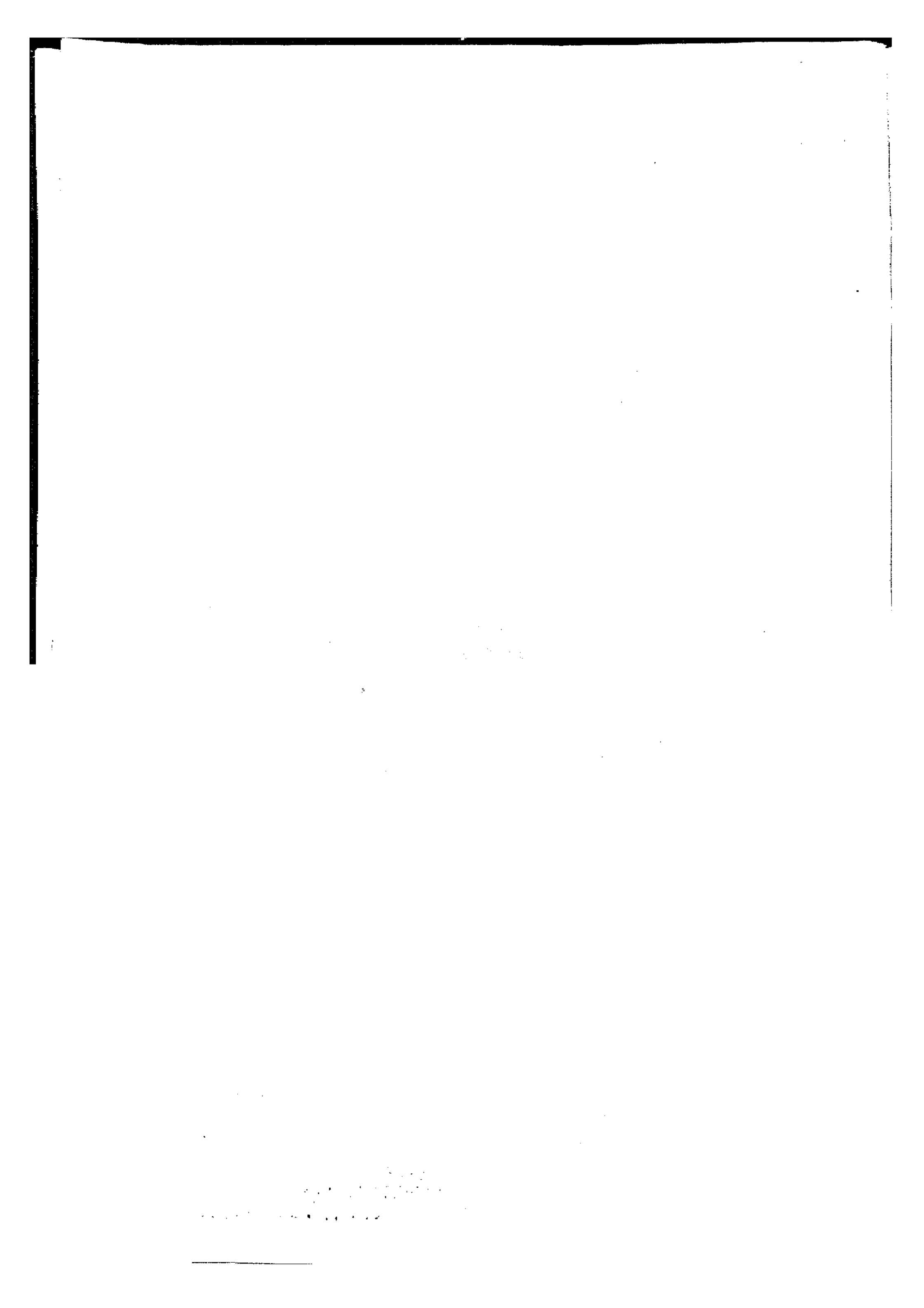
ـ آبا .. أريد أحمد معى .

ـ أنت تسهر فى الخارج ، وأحمد سيكون وحده ولن تراقبه .

ـ أريد أحمد معى يابا ولن أسهر .. سأعيش له يابا .

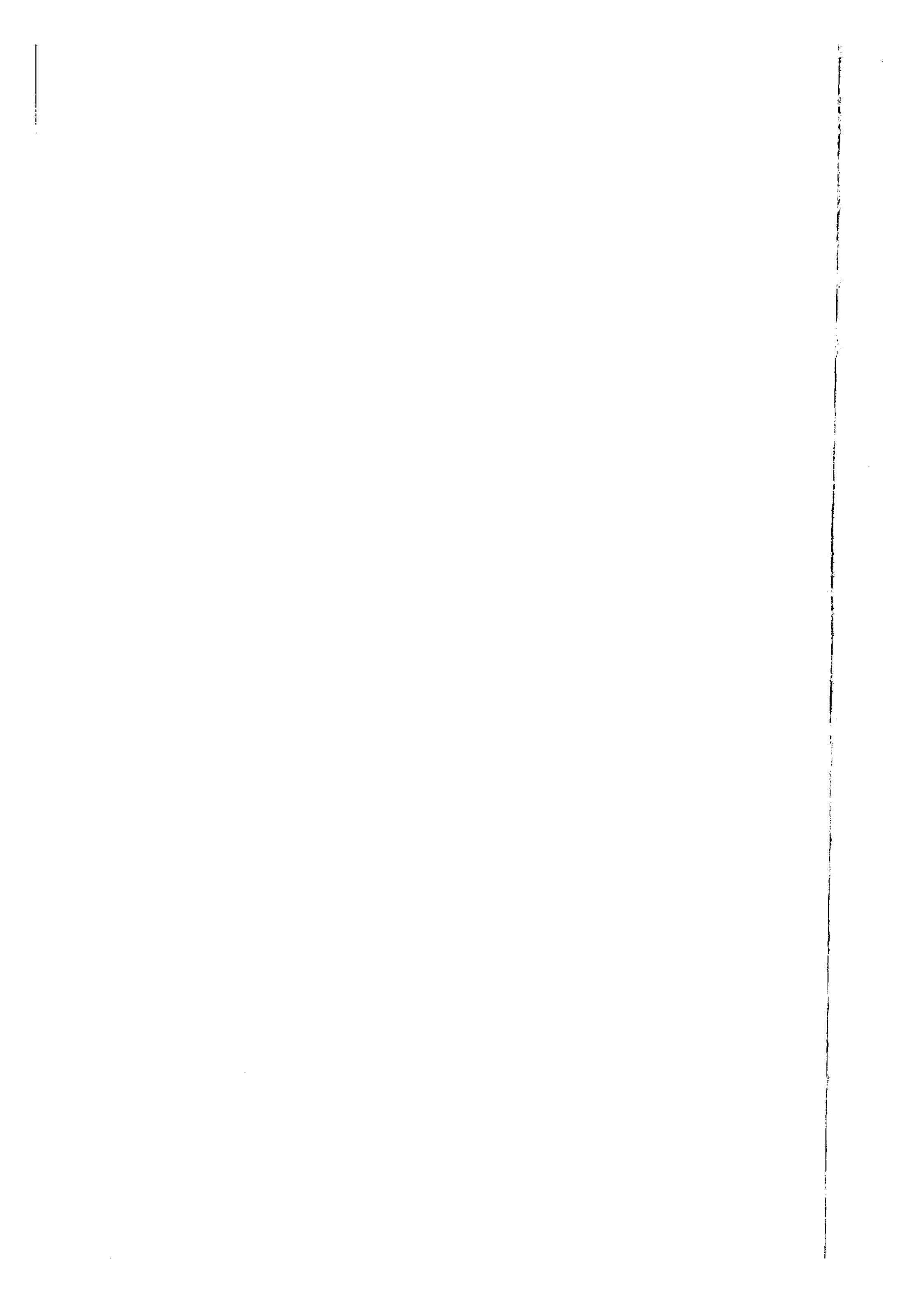
ـ ما شئت يا بنى .. ما شئت .

وصحب الحاج والى ابنه وحفيده إلى القطار فركبـاه ، وحـين عـاد وحيـداً إلى طريق القرية لم يتصاعد الضباب أمـام عينيـه .. أحـس كـأن الضبـاب قـد ركب القطـار مـع ولـده وحفيـده .. لقـد آن لمحمـد أن يحمـل العبء الـذى حملت .. وتدور الحياة .



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/٣٥٦٨
الترقيم الدولى : 5 - 1344 - 11 - 977



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٤٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه